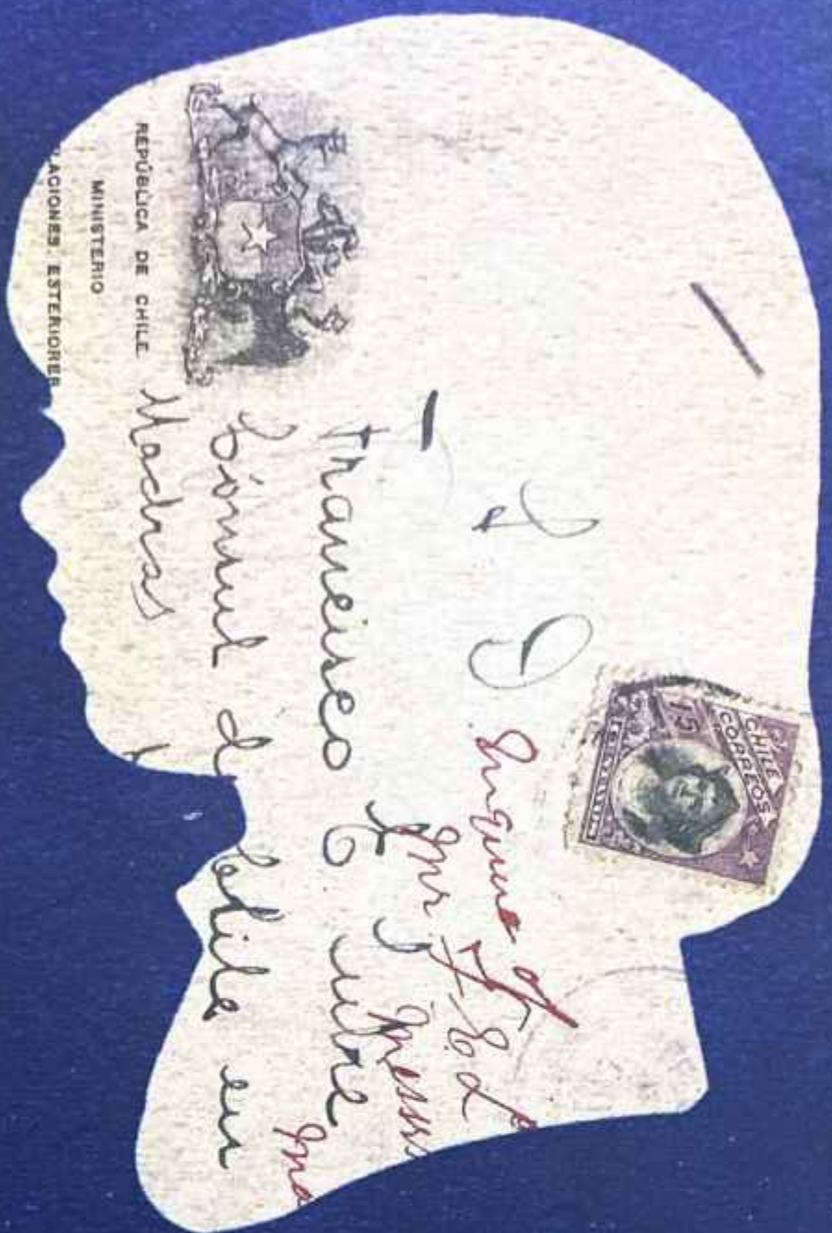

ماريا خوسيه فيرّادا

الضوء آخر المساء

ترجمة: مارك جمال

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

إلى «د»

«ما زلتَ مدينًا لي بمئتَي دولار».

آدي مُتحدِّثةً إلى أبيها في فيلم: «قمر من ورق»

١

بدأ «د» مسيرته بائعًا لمستلزمات متاجر الأدوات: المسامير، والمناشير، والمطارق، والمقارع، وعيون الأبواب السحرية، كلها من علامة كرامپ التجارية.

غادر النُّزل حيث كان يقيم، ومضى حاملًا حقيبته لأول مرة، فلم يجرؤ على الدخول إلى متجر الأدوات الرئيسي في المدينة، التي كانت بلدةً آنذاك، حتى مرّ أمام المتجر ثماني وثلاثين مرة.

تصادفَت أولى محاولات البيع واليوم الذي هبط فيه الإنسان على سطح القمر. يومذاك، تجمَّع الجيران لمشاهدة الهبوط على سطح القمر، إذ عرض عمدة البلدية الصورة على ملاءة بيضاء مستخدمًا جهاز العرض الذي وضعه في شرفة مكتبه. ولأن الصورة جاءت بلا صوت، فلقد انطلقَت فرقة رجال الإطفاء تعزف الموسيقى في الخلفية.

وقع بصر «د» على نيل أرمسترونغ وهو يخطو صوب القمر. وفي تلك اللحظة، خطر له أن كل شيء ممكن، ما دام يملك العزم اللازم والبدلة الملائمة.

وهكذا، ما كاد يمرّ أمام متجر الأدوات للمرة التاسعة والثلاثين، في اليوم التالي، حتى دخل إلى المتجر بألمع حذاءٍ شهدَته المدينة في تاريخها، وعرَض على مسؤول المتجر منتجات كرامپ: مسامير، ومناشير، ومطارق، ومقارع، وعيون أبواب سحرية. لم يبع شيئًا، وإن طُلِب منه أن يعود إليهم في الأسبوع التالي.

ذهب «د» لتناول القهوة، فدوَّن على المنديل الآتي:

لكلِّ حياةٍ هبوطٌ على سطحِ القمر.

وفي وقتٍ لاحق، عندما حكى «د» لأبيه أن الإنسان قد وصل إلى القمر، قال له الأخير: إنها خدعة كبرى، وإن الرَّب قد خلق الإنسان بقدمَيْن راسخَتيْن على الأرض، دون أجنحة، أما كل ما عدا ذلك، فأكاذيب يروجها رئيس الولايات المتحدة.

ولكن، مهما يكُن من شيء، ففي الأسبوع التالي خطا «د» خطوةً باسمِ إنسانيته: وباع نصف دزينة من

المناشير ودزينة من عيون الأبواب السحرية. خرج من متجر الأدوات وقد دوَّن الطلب ووضعه في الحقيبة، فشعر بأن كل سعادة، كبرت أو صغرت، تستحقّ أن تُعرَض على شاشة في ساحة المدينة.

٢

في الأسابيع التالية، مضى «د» إلى سجل الباعة المسافرين بثلاث صور وأربعة إسكودو[١]. وما هي إلا خمسة عشر يومًا حتى صدرَت بطاقة البائع المسافر رقم ١٣٧٠٩ الخاصة بـ«د».

وبالبطاقة التي استقرَّت في جيبيه، والمدخرات التي كانت تعادل عمولته المُستحقَّة عن مبيعات: ٢٣٥٦ منشارًا، و١٠٥٦٧ مسمارًا، و٣٤٥٦ مطرقة، و١٥٣٤ عينًا سحرية، اشترى سيارة رينوليتا، السَّيَّارة التي بدأ يجوب البلدات القريبة على متنها، عملًا بنصائح بائع قديم. في واقع الأمر، أسدى إليه ذلك البائع القديم نصيحةً، وأدلى إليه بتصريح.

---

(١) إسكودو: عملة من تشيلي. (المترجم)

أما النصيحة، فقال له فيها:

- «متى وصلتَ إلى بلدة، فأول ما يجب عليك فعله أن تبحث عن المقهى الذي يتوسَّط البلدة والفندق حيث ينزل باقي الباعة المسافرين. عادةً ما يكون كلاهما في المربع حيث تقع الساحة والحانة.

(وهناك يلتقي أولئك الذين يصيرون عنده من الآن فصاعدًا كأنهم عائلة غير مُستقِرَّة. عائلة خالية من الأقرباء، ولذا فهي أهون على الاحتمال من أي عائلة سواها).

بائع البلاستيك الصيني.

بائع أقلام پاركر.

بائع الكولونيا الإنجليزية.

وسائر البائعين.

أما التصريح، فقال فيه البائع القديم:

- «إن البلدات كلها واحدة: كلها لعينة حقيرة».

إنها الطبيعة التي جُبِلَت عليها، وليس هناك شيء واحد يمكن عمله ضد طبيعة الأشياء.

٣

شيئًا فشيئًا، بدأ «د» في بناء نظرية المعرفة الخاصة به. في البدء قسَّم الأحداث التي تجري في حياة البشر إلى قسمَيْن: الأحداث المحتملة، والأحداث المستبعدة.

من المحتمل أن يزور سبعة عشر عميلًا خلال الأسبوع الجاري. ومن المحتمل أن يُتمّ عشرة منهم صفقة شراء. ومن المحتمل أن تتساقط الأمطار؛ لأن الوقت شتاء.

ولكن من المستبعد أن يتهدَّم بيتٌ، في حال ضرب زلزالٌ أو هبّ إعصار، ما دامت مواد البناء المُستخدَمة في بنائه من كرامپ، بنسبة ثمانين في المئة، الأمر الذي كان «د» يردِّده ناظرًا إلى صورته على صفحة المرآة.

من المستبعد أن تُضطَرّ امرأةٌ إلى استيقاف السيارات بإشارة من إصبعها حتى تصل إلى الجامعة؛ بسبب إضراب قادة الحافلات، تحديدًا على الناصية التي مرَّت بها سيارة «د» الرينوليتا.

ولكن ذلك ما حدث في الثالث عشر من نوفمبر عام ١٩٧٣ بالتحديد.

رآها أجمل نساء العالَم بأسره. في حين وجدَته المرأةُ كثيرَ الحديث، طريفًا، وهي التي لم تضحك منذ زمن.

عقدا زواجهما بعد مضي عام واحد، في الثالث عشر من نوفمبر عام ١٩٧٤.

وفي طريق الخروج من السجل المدني، طلب «د» من المرأة أن تنتظره لحظةً، وذهب ليحضر منديلًا، دوَّن عليه ما جرى من فوره (الزواج) في فئة فرعية تندرج تحت بند الأشياء التي صنَّفها بأنها «أحداث مستبعدة بحقّ» («كل الظواهر التي تحدونا إلى التفكير في وجود ربٍّ»).

٤

ابتنى «د» والمرأةُ الجميلة بيتًا بمواد بناء كرامپ. وبعد زمنٍ، أنجبا ابنةً، فأطلقا عليها «م». أما تلك الابنة المدعوة «م»، فهي أنا.

ما هو إلَّا وقت قليل حتى وضع أبواي مُخطَّطَ تعليمٍ سمح لي بتعلُّم الأشياء التي يحتاج إليها الطفل -أو الطفلة في هذه الحالة- للعيش في هذا العالَم.

وهكذا بدأتُ أعدُّ تصنيفًا مُبكِّرًا للأشياء.

على سبيل المثال: عرفتُ في العام الأول من الحياة بوجود شيء يُسمَّى «النهار»، وشيء يُسمَّى «الليل»، «وعرفت أن كل ما يجري في الحياة له مكان في إحدى هاتَيْن الفئتَيْن».

وفي العام الثاني تعلَّمتُ النظر من خلال النافذة. قال لي أبواي إنني سوف أجني وأخسر أشياء كثيرة على مرّ الحياة. وأخبراني بأنه لا يجدر بي القلق: فلسوف يبقى العالَم في الخارج أبدًا.

وفي العام الثالث عرفتُ بوجود النَّاس. كما استعان أبواي بالنافذة حتى يعلِّماني أن النَّاس ينقسمون إلى أهل الصيف وأهل الشتاء. ما زلتُ لم أفهم لذلك معنى.

أما في العام الرابع من الحياة، فخرجتُ إلى باحة بيتي، ورأيتُ اليراعات. وقرَّرتُ أن تكون تلك ذكرى خاصة، عصية على التصنيف: ذكرى اليراعات التي لا تكفّ عن البريق.

٥

في السابعة من العمر (ذات يوم من أيام الربيع. أعرف أن الوقت كان ربيعًا؛ لأن ذهني يصرّ على أن يصبغ تلك الذكرى باللون الأصفر) سمعتُ لأول مرةٍ قصةَ الهبوط على سطح القمر والدرس المستفاد منها: كل شيء ممكن، ما دام المرء ينتعل حذاءً لامعًا ويرتدي بدلةً ملائمة. كما أضاف «د» أن قليلًا من الحظّ ضروريٌّ أيضًا، في اعتقادي أنه أراد بذلك أن يحذِّرني من طبيعة الحياة.

في مساء ذلك اليوم نظَّفتُ حذائي الجلدي بالفرشاة، وارتديتُ ثوبًا أخضر لاءمتُ بينه وبين الجورب الأخضر، ثم اتَّخذتُ قرارًا بأن أغدو مساعدةً لـ«د».

خرجتُ إلى باحة البيت، حيث أشعلتُ سيجارة، ومضيتُ أتنشَّق ببطء. كنتُ قد سرقتُ السيجارة من علبة السجائر الخاصة بـ«د» الذي يستغرق في النوم وهو يدخِّن أمام التلفزيون ليلًا.

٦

ورثتُ عن «د» قدرةً خارقة على الإصرار. ولذا فما هو إلَّا أسبوع حتى ركبتُ معه السَّيَّارة الرينوليتا -التي صارت تحمل شعار منتجات كرامپ على البابَيْن- ثم انطلقنا إلى بلدة مجاورة.

وصلنا، وتركنا السَّيَّارة إلى جانب الساحة، فأملى عليَّ «د» بعض الإرشادات:

١. أن أبتسم.

٢. أن أذهب للتمشي لو شعرتُ بالضجر، على ألَّا أغادر المربع السكني.

٣. أن أشكر مسؤولي المتجر لو تلقَّيتُ منهم الشوكولاتة أو أي شيء على سبيل الهدية.

كما وعدني بأننا سوف نذهب إلى المقهى في آخر المساء لو بعنا شيئًا أو تلقَّينا مستحقات الشهر الماضي. زرنا ثلاثة متاجر تبيع منتجات كرامپ، والشوكولاتة، والألعاب، والأزرار، والمجلات، والكولونيا، ومناشف المطبخ. خلال الرحلات الأولى، تمكَّنتُ من الانتباه إلى

أن تلك الأشياء، التي صُنِعَت للأغراض الأشدّ تنوُّعًا، تخلق في متاجر البلدة ضربًا من الروابط الأخوية. ومنذ ذلك الحين اكتسبتُ عادة البحثِ في واجهات المتاجر عن أشياء لا تجمع بينها صلةٌ ظاهرة، والتفكيرِ في أنني لو اكتشفتُ الرابط بينها لعشتُ يومًا حافلًا بالحظّ (بين القلم الرصاص المصنوع من الخشب والمقبض المعدني رابطٌ؛ لأن المقبض سوف يُثبَّت في أحد الأبواب ذات يوم. والباب من خشب. قلم-خشب، خشب-باب. حظّ).

في مساء ذلك اليوم بعنا ثلاثمئة منشار، وتلقَّينا مستحقات صفقتَيْن من الشهر الماضي.

كما تلقَّيتُ مجلة أحجيات وعلبة أناناس على سبيل الهدية، فأعربتُ عن امتناني. ثم ذهبنا إلى المقهى في آخر المساء. وهكذا بدأت شراكتنا.

٧

كان كل ما حدث بعد ذلك ممكنًا؛ بسبب غياب أمي. ليس لأنها أكثرَت من التغيُّب عن البيت، بل لأن قطعةً منها قد هجرَت جسدَها، وأبَت أن تعود.

ربما كانت تلك القطعة من أمي رائدة فضاءٍ. ولعلّها، في واحدة من تلك الرحلات إلى الفضاء، قد التقَت «د» (الذي اكتسب عادة النظر إلى السَّماء بين حين وآخر، منذ أن هبط الإنسان على سطح القمر)، فقرَّرَت أن تلك القطعة من أمي، القطعة العائدة من الفضاء، سوف تبقى معه. أو بالأحرى معنا.

ولكن الهبوط على سطح الأرض ليس بالأمر اليسير، ولذا فقدَت أمي نصف قدرتها على الرؤية بالعين اليسرى في أثناء الهبوط.

وعَبْر تلك النقطة العمياء، بدأت تمرّ تلك التي أطلقتُ عليها «حياتي المزدوجة».

لو كانت أمًّا مكتملةً، لانتبهَتْ إلى ما يجري.

هل جعل منها ذلك شخصًا مُتنصِّلًا من المسؤولية؟

لا أعتقد. بل أعتقد بأن الحياة هي التي تنصَّلَت من مسؤوليتها عن أمي قليلًا.

٨

أما الرحلات التي كانت تستمرّ يومًا كاملًا في أغلب الأحوال، فبدأتُ أعدّها مادةً عملية، امتدادًا للمدرسة.

وبموجب الاتفاق الذي توصَّل إليه «د» وأمي، سُمِح لي بالعمل مساعدةً له، وإن اقتصر ذلك على الإجازات وما بعد أوقات الدراسة فحسب. كما اتَّفق أبواي على ضرورة العودة إلى البيت بحلول السَّاعة التاسعة ليلًا، أيًّا كان اليوم.

ولكن «د» لم يولِ الاتفاقيات أدنى اهتمام -حتى أمي لم تفعل-، فصرنا نمرّ أمام باب المدرسة ونمضي في سبيلنا إلى الطَّريق.

من فرط ما سمعتُه يتحدَّث عن منتجات كرامپ، بدأتُ أستعين بها حتى أفهم كيف يسير العالَم. وهكذا، بينما كان زملائي يكتبون القصائد عن الأشجار وشمس الصيف، مضيتُ أنا أحتفي بعيون الأبواب السحرية والزرديات والمناشير.

كما رحتُ أبتكر أدوات مثل «آلة الجمع» المُؤلَّفة من: مستطيل خشبي مضغوط، ومسامير، وصواميل (كان لوحًا للحساب كغيره، ولكني أطلقتُ عليه: «آلة الجمع»).

أذكر أنني قد ذهبتُ في رحلة إلى أحد المخيمات، فخرجنا لتأمُّل النجوم. وبالاستناد إلى «كوكبة صليب الجنوب»، أوضحتُ لزملائي أن تلك التي تسطع بعيدًا لم تكُن أنجمًا، بل إنها مسامير طول الواحد منها ثلاثة إنشات، إنها المسامير التي علَّق بها النجَّارُ الأعظم كلَّ شيء من السَّماء. كما علَّقَنا نحن أيضًا.

أقصد أن كل شخص يحاول تفسير آلية الأشياء بما يجد في متناول يده. وأنا قد مددتُ يدي في عمر السابعة، فعثرتُ على دليل منتجات كرامپ.

٩

متاجر الأدوات

يتألَّف كلُّ بِناء من مجموع الأجزاء، الأجزاء التي تصل بينها الروابط.

ولقد أوضح لي «د» الأمر على النحو الآتي: حتى أكبر بِناء في العالَم بأسره يقوم على هيكل مُتَّصل بعضه ببعض عن طريق المسامير. ما يعني:

١. أن الكبيرَ والصغير يكمِّل بعضهما بعضًا.

٢. وأن مسمارًا واحدًا قد يعجِّل بنهاية العالم في حال لم يُثبَّت بإحكام. لأن البناء الذي ينهار الآن سوف يطيح ببناء آخر، فآخر، بتأثير الدومينو الرهيب. وهكذا حتى تفنى المدينة والبلدان والحضارة.

«يمكن فهم كل شيء -آلية المنظومات البيئية، وقانون السبب والتأثير، والنسبية- بالتأمُّل في جوارير متجر الأدوات، والمناشير والمطارق المُعلَّقة بالجدار أيضًا»، هكذا تكلَّم «د».

الآخرون كلهم

كما توقَّع البائع القديم، كان المقهى والحانة مركزَ الكَوْن الذي يدور حوله كوكب المبيعات (غير أنني لم أذهب إلى الحانة). لم يتَّفق أحدٌ على حضور تلك الاجتماعات، كل ما في الأمر أنهم كانوا على علم بتردُّد

البائعين جميعًا إلى هذين المكانَيْن، حيث يلعنون حظَّهم التعيس، في ساعات بعينها من اليوم.

كانت المقاهي تمثِّل شمسًا خاصة. ولو نظر أحدهم أسفل الطاولة، لرأى أحذية سوداء كثيرة مفرطة اللمعان، وحقائب، وحذاءً أبيض يتدلَّى من الكرسي، حذائي أنا.

أحببتُ تنشُّق دخان سجائرهم، ومراقبة البائعين وهم يطلبون قهوة تلو أخرى، والإنصات إلى أكاذيبهم مرة تلو أخرى.

قصة «ك»

أودى «ك» بحياة امرأةٍ. أرسل إليها شُحنة قدرها مليون إبرة، في بلدة لا يربو عدد سُكَّانها على الألف نسمة، فأصابتها نوبة قلبية. رأت المرأة شاحنةً تقف أمام متجرها، ورأت الحمَّالين يشرعون في إنزال البضائع، فانقطعَت أنفاسها ببساطة.

لم تكُن البضائع المطلوبة تُرسَل بدقةٍ مطلقًا. بل إنها كانت تشهد زيادةً في الكمية. فلو طلب أحدهم دزينة من أي شيء، من المحتمل أن يتلقَّى أكثر مما طلب

قليلًا. أما مزية غياب الدقة (وتجنُّب توقيع أي نوع من المستندات، أو الطلبيات في هذه الحالة)، فكانت واحدة من أولى شرائع المبيعات والحياة.

جرَت قصة الإبر منذ زمن، ولكنها ما زالت تُردَّد إلى حدّ السأم.

سمعتُها أول ما سمعتُها، فشعرتُ بالأسى للمرأة القتيلة، ولكن ما هو إلَّا قليل حتى انسلَّت من فمي ابتسامة، ثم قهقهة رنانة، أرفقتُها بالتصفيق الذي انضمّ إلى دخان السجائر وقهقهات الآخرين.

قصة «ف»

كانت قصة «ف» بسيطة: إذ وصل إلى بلدةٍ، وهناك احتسى برميلًا كاملًا من شراب الرمّ. ثم ركب القطار، واستغرق في غفوة. وحين أفاق من النوم، وجد نفسه في البلدة التي قد غادرها. في السَّاعة نفسها. وإن أشار التقويم إلى اليوم التالي. فقد «ف» يومًا من عمره، كما فقد الحقيبة وحقيبة اليد أيضًا.

كان كلَّما روى الحكايةَ سُئِل عمَّا إذا اُضطُرّ إلى

شراء تذكرة العودة أم لا، وعندئذٍ يستغرق الحضور في القهقهة الرنَّانة مرة أخرى.

كان يروقني أن أتخيَّل تلك الرحلة الدائرية: بالقطار الذي يركبه «ف» مسافرًا إلى ما لا نهاية حول كوكبٍ على شكل البرميل.

قصة «س»

ذات مساء، خرج «س» من بلدة ملعونة (كما كان يقول في كل مرة: بلدة ملعونة)، فاصطدمَت سيارته السيترونيتا بسياج الجسر. وكالمُتوقَّع، انهار السياج، وسقط «س» في النهر. كانت الصدمة من الشدة بحيث تحطَّمَت السَّيَّارة السيترونيتا وصارَت ألف قطعة، بينما غاب «س» عن الوعي، وهام طافيًا على سطح الماء فوق باب السَّيَّارة.

مرَّت الساعات، أو ربما الأيام، وأخيرًا جنح «س» على ضفة بلدة أخرى، «بلدة ملعونة أخرى. بل إنها فوق ذلك في غاية الفقر». فقد «س» ثيابه في حادثة الغرق، وظلّ غائبًا عن الوعي. حمله أهل البلدة إلى أحد البيوت

محاولين إنعاشه، وإن لم يحالفهم الحظّ، فألبسوه ثياب فزَّاعةٍ ومضوا به إلى مستشفى البلدة الوحيد، هناك حيث استردّ وعيه بعد أسابيع.

وصل إلى بيته بثياب الفزَّاعة وقد نقص وزنه عشرة كيلوغرامات، فلم يتعرَّفه كلبه. أما زوجته الثالثة، فكانت قد رحلَت مع صيدلاني. «لطالما جاء الغرقُ متبوعًا بغرقٍ آخر سواه»، هكذا كان «س»، الأثير عندي، يختم قصته.

كانت القصة تتبدَّل كلَّما رواها «س»، فيغدو الباب الذي أنقذ حياته من الموت إطارًا أو جذع شجرة تصادف مروره عَبْر النهر آنذاك. وتغدو ثياب الفزَّاعةِ ستارًا، أو ثيابَ أحد الموتى، أو لحافًا.

١٠

على مرِّ الأيام، كنتُ أترك في حقيبة «د» رسائل من قبيل: «أحبُّ أن أكون مساعدتك».

وأرسم الأزهار «وحشرات الحظّ» على سبيل التوقيع.

فيجيبني «د» برسائل من قبيل: «من دواعي سروري».

ويرسم الأسماك والحيتان على سبيل التوقيع.

١١

في بعض الأحيان، كان ينضمّ إلى عائلة الباعة المسافرين صنفٌ ثانٍ من الأقرباء: أولئك الراغبون في السفر مجانًا.

وتلك المجموعة تضمّ طبقتَيْن: المثاليين المؤمنين بالتعاون، والبخلاء المُستَعدّين للكلام طوال الطَّريق ما سمح لهم ذلك بتوفير تكاليف الرحلة.

لم أتمكَّن من إدراج «إ» في أي فئة من هاتين الفئتَيْن، ولذا قرَّرتُ أن أضعه بين هذه وتلك.

كان «إ» مسؤولًا عن عرض الأفلام في سينما الجامعة، فضلًا عن الحصول على تلك الأفلام وفتح أبواب السينما وإغلاقها أيضًا. أما مهمته الخامسة، فكانت تقضي بتحصيل قيمة التذكرة التي لا يدفعها أغلب الحضور. ولكن سيَّان؛ لأن «إ» لم يولِ المال أهمية، بل كان مُهتمًّا بأن يشاهد أحدهم الفيلم حتى يتمكَّن من التعقيب عليه (كما أن دار السينما لم تكُن ملكًا له).

تعارف «د» و«إ» بفضل فيلم «٢٠٠١: أوديسة الفضاء». لم يكُن «د» شديد الولع بالسينما، على الرغم من شعوره «بالاحتياج» إلى مشاهدة فيلم بين حين وآخر، على نحو ما فسَّر الأمر. كانت الأفلام التي يشعر «بالاحتياج» إلى مشاهدتها تدور حول رجال التحرِّي أو الملاكمين بوجه العموم. أما في ذلك اليوم، عندما انتبه إلى صورة سفينة الفضاء التي تدور حول القمر إعلانًا عن فيلم ستانلي كيوبريك، فلقد عاش حالةً من التجلِّي: خُيِّل إلى «د» أنه هو الذي يدور حول الأرض، لا الآلة. ومن الأعالي، رأى الأرضَ نقطةً، مسمارًا كغيره من المسامير الكثيرة، نقطة تائهة في ذلك الهيكل الخشبي الكبير الذي يمثِّل ليلَ الزمان. وبتأثير من الاغتراب، صار كل شيء محكومًا بالتلاشي. بالافتراق. بالمضي في سبيله، مَن يدري إلى أين!

شاهد الفيلم ثلاث مرات متتالية؛ لأن تلك مزية أخرى من مزايا سينما «إ»: فلو أراد الحضورُ مشاهدة الفيلم مرة أخرى، عرضه «إ» من جديد. من أجل هذا كان يدير السينما، حيث تسير الأمور بطريقته، على الأقل هناك، في معقل المقاعد غير المريحة.

وبعد أن أُغلِقَت أبواب السينما، ذهبا إلى حانة. ومع أنه من المستحسن ألَّا يتحدَّثا بشأن السياسة، فلقد فعلا. أما وقد تحدَّثا بشأن السياسة، فلقد تطرَّقا إلى الدين أيضًا.

وحين وصلا إلى تلك النقطة من الثقة والسمو، حكى له «د» عن منتجات كرامپ، بينما أخبره «إ» بأن شغفه الحقيقي لم يكُن السينما، وإنما التصوير الفوتوغرافي بالأبيض والأسود.

وفيما هما يحتسيان قارورة النبيذ الثالثة، قال «إ»: إن هناك بلدةً بعينها، يهمُّه تصويرها بصفة خاصة، بلدة شبحية، تقع على الطَّريق التي تقطعها سيارة «د» الرينوليتا كل أسبوع (لو شُوهِدَت من القمر لتراءت نقطةً مُستقِرّة على خطٍّ مستقيم).

١٢

ما هو إلَّا قليل حتى صار لدينا، أنا و«د»، ما يشبه منظومة العمل.

كان أول ما نفعل عندما نصل إلى بلدة، قبل الدخول إلى أي متجر من متاجر الأدوات، هو التحقُّق من لمعان

حذاءينا -ولهذا احتفظ «د» بفرشاة في صندوق السَّيَّارة على سبيل الاحتياط- ثم إشعال سيجارة. سيجارة الحظّ. ذلك الحقّ الذي اكتسبتُه بحلول الشهر الثالث أو الرابع، بعد أن تأكَّد «د» من فعالية حضوري أمام خزائن العرض بالمتاجر.

- «لا يمكن أن تعرف أمُّك بهذا»، قال لي.

- «لن تعرف طبعًا»، كنتُ أقول له، وأتركُ سحابةً صغيرة من الدخان تنسلّ من فمي.

كنا نتردَّد إلى متاجر الأدوات، حيث يتكرَّر المشهد نفسه في كل بلدة، مع الأخذ في الحسبان ثلاثة متغيرات محتملة: أن يكون كل شيء على ما يرام، أو بين بين، أو على غير ما يرام... والأمر برمّته رهن بأداء منتجات كرامپ منذ الزيارة الأخيرة.

١. منتجات سُلِّمَت، ثم بيعَت من دون مشكلة: ما يعني أن كل شيء على ما يرام (وفي تلك الحالة عادةً ما كان «د» يتقاضى المستحقات ويعقد صفقات البيع، بينما أتلقَّى أنا هدية رخيصة).

٢. منتجات سُلِّمَت، ولكنها لم تُبَع: ما يعني أن كل

شيء بين بين. وفي تلك الحالة يستشهد «د» بأحد الأمثال عن الزمن، من قبيل: كل شيء مسألة زمن، تبسَّم في وجه الزمن العصيب، اصبرْ على الزمن. ثم نغادر سريعًا.

٣. منتجات سُلِّمَت، مع الأخذ في الحسبان بعض المتغيرات: أن يكون كل شيء على غير ما يُرام. ما يعني وجود اختلاف بين ما طلب المسؤول وما تسلَّمه. وعادةً ما يكون «د» قد أدخل ذلك الاختلاف عن عمد؛ نظرًا إلى الحوافز الإضافية التي تقدِّمها الشركة لقاء بيع منتجات بعينها في بعض الفترات، فنجد أن مايو شهر الصواميل، ويونيو شهر المطارق، ويوليو شهر المفكات الصليبية. في تلك الحالة يغدو رد فعل صاحب الشأن رهنًا بعدد المرات التي تكرَّر فيها الأمر، وطبيعة المنتج، فشتَّان بين تلقِّي المتجر شحنة قدرها ألفا مظلَّة في أول الشتاء، وشحنة قدرها ألفا مظلَّة في أول الصيف.

غالبًا ما كان عملي يبدأ في تلك الحالة الأخيرة، فأن تنعت أحدهم بالوقاحة وهو ممسك بالحقيبة شيءٌ، وأن تنعته بذلك وهو ممسك بيدي شيءٌ آخر.

كنتُ أمتنع عن الكلام، وأكتفي بالنظر إلى المسؤول مليًّا.

في أحد المسارح، في حياة أخرى، تعلَّمتُ كيف أنظر نظرات مختلفة: نظرة اللامبالاة، نظرة العذوبة التي تشوبها مسحة من الحزن، نظرة الضجر، نظرة اليأس. أما وسيلتي الأخيرة، فكانت نظرة البكاء الوشيك. وتلك أقوى النظرات جميعًا، فلو انتبه مسؤول المتجر إلى حدقتَيَّ، لما وجد نفسه أمامي أنا، بل وجد نفسه أمام أشكالِ الهشاشة الممكنة كلها: الجوع في العالَم، وتماثيل الثلج التي تنتهي إلى الذوبان في الماء بعد كل الجهد المبذول، والكلبة لايكا التي تدور وتدور وتدور في ليلٍ لا ينتهي. بات كل شيء يسكن في تلك الحلقات المعتمة متناهية الصغر؛ لأن طبيعة الحياة تقضي بأن يكون الشيء معتمًا متناهي الصغر.

«أنت تعرف، و«د» يعرف، كما أعرف أنا أيضًا، وأنا ابنة السابعة من العمر... ماذا تفعل؟ أتهينه بسبب شحنة زائدة من المسامير والصواميل؟ ضع حدًّا لهذا مرةً

وإلى الأبد، ضع حدًّا لهذا اللغو الذي لا معنى له، ضع حدًّا لكل هذا».

كنتُ أفكِّر في ذلك، ولكني لا أنطق به، وعيًا مني بأن أي كلمة أدلي بها قد تبدِّد الأثر الدرامي والتوتُّر الذي تعلَّمتُ كيف أتحكَّم فيه خلال شهور قليلة.

كنا نروح ونغدو عَبْر الطرقات. وبعدما أمضينا قرابة عامٍ -أي: نصف المدة التي استغرقَتها مسيرتي معه على وجه التقريب- طلبتُ من «د» عمولةً بما يلائم موهبتي، كما يقتضي العدل، لو أخذنا في الحسبان أنني أجتهد كل يوم، سواء أتدرَّبتُ أمام المرآة أم جرَّبتُ مع صديقاتي في المدرسة، أولئك اللاتي كنتُ أقطع صداقتي بهن ثم أستأنفها مقابل شطيرة أو مجلة مستعينةً على ذلك بالصمت نفسه.

قبل الاسترسال في الحديث، يجب عليَّ أن أوضح أنني لم أمضِ مدفوعةً بالربح المادي فحسب. بل إنني قد شعرتُ برغبة جارفة مُبكِّرة تحدوني إلى اكتشاف مواطن الضعف في القلب البشري والبحث عن العدالة.

وبينما رحتُ أفكِّر في ما تعلَّمتُ خلال درس الرياضيات، قلتُ له:

- «أريد نصيبي، عشرة في المئة من الأرباح».

- «انسي الأمر».

لم تكُن لديَّ فكرة واضحة عن طريقة الاستمرار في عمليات القسمة، فأجبتُه:

- «إذن، أريد سبعة بيزو عن كل مئة بيزو تربحها».

- «انسي الأمر».

- «خمسة بيزو عن كل مئة، وإلَّا، فلن أرافقك مرةً أخرى أبدًا».

أذكر أننا كنا في المقهى، وأن «د» قد رفع عينَيْه عن البطاقات الصفراء حيث يدوِّن الطلبات، فنظر إليَّ وهو يقيس مقدار الحقيقة في كلماتي، ويسترجع بذهنه وضعَ الأطفال في العالَم. لو قَبِلَ بالاتفاق الذي عرضتُه عليه، لجعل منه ذلك مُستخدِم أطفال، وعمالة الأطفال قد حُظِرَت منذ زمن غير قصير. ولكن آينشتاين كان هناك، آينشتاين الذي قال للعالَم: إن كل شيء نسبي،

فلم نفهمه. ولكن شيئًا من عنوان نظريته قد ترسَّب في نفوسنا.

صحيح أنه ليس من الممكن أن أعود إلى البيت مُحمَّلةً بالنقود، وإلَّا، استرعى ذلك انتباه أمي التي سوف تكتشف غيابي عن المدرسة وتنصُّل «د» من المسؤولية لو أنها تتبَّعَت خيط الأحداث.

لم يكُن في مقدوري العودة إلى بيتي مُحمَّلةً بالنقود.

- «ولكن، دعينا نُجرِي عملية مقايضة».

- «وما هذا؟».

- «لن أعطيكِ نقودًا، ولكننا كلَّما بعنا بأكثر من مئة ألف بيزو اشتريتُ شيئًا من أجلك».

- «حسنًا، قبلت»، قلتُ له.

في الرحلة التي أعقبَت تلك المساومة أتممنا صفقةً بعنا فيها شحنةً من رؤوس المثاقيب. رؤوس مثاقيب بديعة، كثيرة، في غاية الكثرة، تكفي لتغمر بلدةً بأسرها، والعالَم بأسره، بل إنني رأيتُها كافيةً لتغمر مجرةً بأسرها.

أردتُ أول ما أردتُ حقيبةً أشبه بتلك التي يحملها

«د»، ولكنها صفراء اللون، كنتُ قد رأيتُها في متجر ألعاب.

ذهبنا للحصول عليها، فوجدنا أنها لم تعُد هناك. وعلى سبيل المواساة، اشترى «د» من أجلي حقيبةَ مُمرِّضةٍ من البلاستيك، يتوسَّطها صليبٌ أبيض. بدأتُ أستخدم الحقيبة كلَّما خرجتُ للعمل مع «د»، فأسبغَت على شخصيتي قدرًا أكبر وأكبر من الفعالية.

ما هو إلَّا قليل حتى انضمَّت إلى الحقيبة مجموعةٌ من الدُّمى، كلٌّ منها ترتدي الثوب التقليدي لبلدها، ومعطفٌ أخضر مُزيَّن بمشبك، وقارورةٌ عازلة صفراء على شكل ميكي ماوس، وقبعةٌ تُعتمَر على الوجهَيْن، وصدارٌ منتفخ، ودزينةٌ من الأشياء التي رحتُ أدوِّنها تحت بند «المدفوعات» في دفتري الذي كنتُ أحمله دائمًا.

في الثامنة من العمر تقريبًا، اكتشفتُ أن «د» لم يكُن بالأب العظيم، ولكنه ربّ عمل ممتاز.

١٣

في الأسبوع الذي أعقب مشاهدة العرض المستمر لفيلم «٢٠٠١: أوديسة الفضاء»، مرّ «د» بالسينما مرة أخرى، وقال لـ«إ»:

- «تلك البلدة التي تريد الذهاب إليها لا تندرج ضمن البلدات المُحتَلَّة، ولا البلدات المُتاحة. ولكني أستطيع أن آخذك إلى هناك غدًا».

- «ماذا تعني؟».

- «أعني أن البلدة خالية من متاجر الأدوات».

- «وماذا إذن؟»، سأل.

- «لا تقلق. سأطلق آلة التنبيه غدًا حين أمرّ بك، في تمام العاشرة».

ولكن، بالعودة إلى الوراء، كان «د» هو الذي يجدر به أن يقلق في واقع الأمر. غير أنه لم يشعر بالقلق، بل إنه قد مرّ بـ«إ» في تمام العاشرة، ثم تركه في ساحة البلدة الشبح التي سوف يحمله إليها مرات كثيرة على مدى الأشهر التالية.

وبينما راح «إ» يلتقط الصور ويجري التحرِّيات، كان «د» يُغرِق البلدة المجاورة بالأقفال والصواميل، ثم يمرّ به عندما ينتهي من العمل.

كانا يتحدَّثان عن أي شيء في طريق العودة. ومن بين تلك الأشياء، قال «إ»: إن صحيفة أجنبية قد أبدَت اهتمامًا بصوره الفوتوغرافية.

تراءى العالَم الأجنبي لـ«د» أبعد مما ينبغي، فبدَّلا دفة الحديث، وتطرَّقا إلى الفيلم المُزمَع عرضه في الأسبوع التالي: «أن تقتل طائرًا محاكيًا»، بطولة غريغوري پيك.

١٤

تمثِّل المبيعات منظومةَ نجاةٍ، شأنها شأن كل عمل سواها. ولكنها لم تسمح للإنسان بالنجاة حتى آخر الشهر، بل حتى منتصف الشهر تقريبًا، كالأغلبية العظمى من تلك المنظومات. ما أرغم الإنسان على الاستعانة بأصدقائه، أو الشيكات واجبة السداد بعد ثلاثين يومًا، أو دار الرهونات، أو المرابين (الذين لم يلجأ إليهم إلَّا في الحالات القصوى)، بدءًا من منتصف

الشهر. هكذا كانت حال البائعين كلهم، ومن بينهم «د».

يسعى المرء إلى الهدف الأسمى: النجاة. مستعينًا على ذلك بإستراتيجيات كبرى، تُضاف إليها إستراتيجيات أخرى أصغر نطاقًا، تطرأ عليها متغيرات طفيفة كل يوم، حسب طبيعة العمل. وفي حالة المبيعات، نجد تلك الإستراتيجيات كالتالي:

الإيصالات

يمكن العمل بموجب هذه المنظومة في: المقاهي، والمطاعم، وحتى الفنادق. ولكن الأمر يستحقّ العناء حقًّا في الفنادق. كان ذلك شيئًا بالغ البساطة، ففي تفاصيل الإيصال تُكتب وجبة فطور واحدة بدلًا من وجبتَيْن، ووجبة غداء واحدة بدلًا من وجبتَيْن، وغرفة لفرد واحد بدلًا من غرفة لفردَيْن. وهكذا تتولَّى الشركة دفع نفقاتك ونفقات مرافقك أيضًا، من دون أن تدري.

دعَت الضرورة إلى تواطؤ الطرفَيْن، ما جعلنا نلجأ

إلى تلك الحيلة في: المقاهي، والمطاعم، والفنادق التي يتردَّد إليها البائعون.

وهناك من طوَّر تلك المنظومة أيضًا. أذكر فندقًا كان يملك متجر ثياب ملحقًا به، حيث تُباع: السترات، والمعاطف، والأحذية، والأقمصة، وربطات العنق مُموَّهةً بسلاسة تحت بند الإقامة مدة ثلاثة أيام في الفندق، مع أن الإقامة لم تتعدَّ اليوم الواحد في واقع الأمر.

كنا نغادر الفندق مُتدثِّرين بالثياب الدافئة، منتصرين. ولكنها ليسَت سرقة، بل غنيمة صغيرة نفوز بها في ذلك الصراع الذي يخوضه كل إنسان ضد المنظومة التي تقمعه، كما فكَّر المُثقَّفون الذين كانوا يراقبون عُمَّال العالَم من مكانهم بأحد المقاهي. أما نحن، فلم نفكِّر في الأمر من مكاننا بمقهى آخر، على الرغم من علمنا بذلك في قرارة قلوبنا متناهية الصغر أيضًا. لم تكُن سرقة. ولو كانت سرقة، فنحن لم نلقِ إلى الأمر بالًا.

رسوم المرور

كانت هناك مشكلة أساسية تكمن في منظومة استرداد النفقات، فلا بدّ من تقديم كشف حسابٍ بتلك النفقات.

اضطُرَّ «د» إلى أن يقدِّم كشفَ حسابٍ أسبوعيًّا مرفقًا بإيصالات الفنادق والمطاعم ورسوم المرور (وهنا تأتي النقطة الأشدّ تعقيدًا)، إذ كان استغلال منظومة إدارة الطرق لصالحنا أبعد ما يمكن عن متناول أيدينا، بكل بساطة، على الرغم من وجود شبكة من الفنادق والمطاعم التي أبدَت استعدادها لتزوير الإيصالات.

وهكذا كنا نلجأ إلى حيلة بسيطة كلَّما أردنا أن نستردّ نفقات رحلة لم نقطعها: كنا نوقف السَّيَّارة على حافةِ الطَّريق لدى مرورنا بنقطة العبور، ونبحث عن إيصالات دفع رسوم المرور التي ألقاها عَبْر نوافذ السيارات مسافرون آخرون، ليسوا مُضطَرِّين إلى تقديم كشف حساب.

كانت تلك العملية تُنفَّذ بعناية. لأن الفارق بين اليوم الذي تزعم أنك قد دفعتَ رسم المرور فيه واليوم

الذي تحصل فيه على إيصال الدفع لا يمكن أن يتعدَّى يومًا واحدًا أو اثنين في أقصى تقدير؛ لأن الإيصالات إما تذروها الريح على الطَّريق، وإما تغدو في حالة مزرية؛ بسبب أشعة الشمس صيفًا أو المطر شتاءً.

لم يكُن من المناسب أن يقترب المرء من الطَّريق كثيرًا، إذ لا يمكن البحث عن تلك الأوراق إلَّا على حافة الطَّريق، وإلَّا جازفتَ بأن تدهسك إحدى السيارات المارة. ولو وقع ذلك، لصار من المستحيل بحقٍّ أن نفسِّر لأمي ما الذي كنت أفعله عندما رحتُ أتصيَّد الأوراق على حافة الطَّريق خلال اليوم الدراسي. كانت أمَّا غائبة، وإن لم يجدر بنا أن نسيء استغلال ذلك الغياب.

من المُؤكَّد أنها ما كانت لتتفهَّم لا المقايضة ولا منظومة التعليم الموازية؛ لأن أمي امرأة رصينة، حسبما قال «د»، وإن لم تكُن رصينة، فهي أقرب ما عرفنا من الرصانة؛ لأنها كانت امرأة رائعة الجمال، والحقُّ والخيرُ والجمالُ واحدٌ، «كما تقول الفلسفة المدرسية[1]»، وكما

---

(١) الفلسفة المدرسية أو السكولاستية: فلسفة سادت أوروبا في العصور الوسطى، ترمي إلى ربط العقل بالإيمان. (المترجم)

جاء في عدد الأسبوع الماضي من مجلة المختار»، تابع «د» حديثه. ولكني ما عدتُ أوليه انتباهًا.

١٥

يومَ تعرَّفتُ بـ «إ» -المُصوِّر الفوتوغرافي- جلس في المقعد المجاور للسائق. أذكر أنه قال شيئًا عن صفوف أشجار الحور القائمة في تلك الدروب المُتشعِّبة من الطَّريق، وقال: إن الصورة الجيدة بالأبيض والأسود تُظهِر جميع درجات الرمادي الكائنة بين اللونَيْن؛ لأن الضوء إما يُظهِر الأشياء وإما يخفيها.

الضوء.

استوقَفَنا «أ»، ثم ترجَّل عن السَّيَّارة حتى يصوِّر أشجار الحور. بدا عليه أنه يملك كل ما يحتاج إليه من الوقت في هذا العالَم، بخلافنا نحن.

اغتنمتُ أنا و«د» تلك الوقفة لإشعال سيجارة. كان «إ» من أولئك النَّاس الذين يبدو أن حضورهم يبثُّ في الآخرين شعورًا بإمكانية التصرُّف بكل عفوية، من أولئك النَّاس الذين لا يتوقَّعون منك أن تصل في

الموعد، ولا أن تدلي بشيء مهم عندما تصل أخيرًا، ذلك الصنف من النَّاس الذين يرتابون في النظام، ولذا يحملون معهم قليلًا من الفوضى أينما ذهبوا.

عندما التقط صور الأشجار أخيرًا، أطلعني «إ» على الكاميرا الفوتوغرافية. كانت من طراز كانون FTB، الكاميرا التي استخدمها المراسلون لتوثيق حرب فيتنام.

الضوء إما يكشف الأشياء، وإما يخفيها.

الأثر.

كان ذلك هو الشيء الذي أراد «إ» أن يلتقطه.

- «بهذه الكاميرا أفتِّش عن الأشباح»، قال لي.

- «وكيف يبدو الشبح؟»

- «أبيض، تكسوه ملاءة بها ثقبان لينظر من خلالهما».

ولكن الشيء الذي لم يعرفه «إ» آنذاك أنه سوف يغدو واحدًا من تلك الأشباح بعد شهور قليلة. في تلك الحقبة، كانت المدن ملأى بالأشباح.

عرف «إ» ذلك، ومضى يفتِّش عنهم، ويستحضرهم، ثم انضمّ إلى عائلته.

أذكر أننا قد تركناه في البلدة يومذاك، ثم مررنا به في طريق العودة إلى المدينة.

- «هل عثرتَ على الكثير؟»

- «الكثير من أي شيء؟»

- «من الأشباح».

- «كلا، لم يحالفني الحظّ».

- «حسنًا، في المرة القادمة إذن»، شجَّعتُه.

- «سنرى، ولكني أعتقد بأنني قد عثرتُ على واحد منها، انظري هنا: «كليك»».

أما الصورة التي أطلعني عليها، ثم أهداني إياها في الرحلة التالية، فهي واحدة من الذكريات القليلة التي أحتفظ بها من تلك الحقبة، حيث أبدو جالسةً في المقعد الخلفي من السَّيَّارة الرينوليتا، باسمةً، فاتحةً عينَيَّ عن آخرهما.

في صورةٍ بالأبيض والأسود، بجميع درجات الرمادي الكائنة بين اللونَيْن.

١٦

كانت وجهةُ الباعةِ المسافرين المدن، و-في أغلب الأحوال- البلدات. تلك التي كانت تشبه المعسكرات، ويكمن قلبها الإستراتيجي في الفندق، فلا يكاد المسافر يستقرّ هناك حتى ينطلق، أو ننطلق، في تحرُّكات ترمي إلى غزو الأراضي المجاورة. وإذا بنا قد صرنا نحن الغزاة الراغبين في هداية أولئك المتوحشين إلى ديانة منتجات كرامپ، وأقلام پاركر، والكولونيا الإنجليزية، والبلاستيك الصيني، حسبما تقتضي الحالة.

وكلَّما زادت رقعة الأراضي البكر، فذلك أفضل: كانت البلدات تستعيد عذريتها من تلقاء نفسها كل ثلاثين يومًا، بما يوافق المدة التي تستغرقها دورة زيارات البائعين على وجه التقريب.

كانت تلك الحملات أشدّ صرامةً، ولم أنجح في خوضها على مدى هذين العامَيْن سوى أربع أو خمس مرات، إذ لم يُسمَح لي بذلك إلَّا خلال الإجازات. كما أن القاعدة العامة تقضي بأن طفلةً في الثامنة من العمر لا يمكنها النوم خارج البيت ما لم تُقدِّم مُبرِّرًا معقولًا.

وعلى الرغم من ذلك، فلقد تسنَّى لي الغياب عن المدرسة -أكثر فأكثر- ثم العودة إلى البيت وكأن شيئًا لم يكُن، بفضل الفكرة النيرة التي خطرَت لـ«د»: «غالبًا ما يكون حلُّ المشكلات المعقدة مذهلًا في بساطته».

أعددنا نسخةً زائفة من دفتر الاتصال بأولياء الأمور، يوقِّعها «د» (في حالات الغياب)، إلى جانب الدفتر الحقيقي الذي كانت توقِّعه أمي (في حالات الاجتماعات وزيارات المتاحف والرحلات إلى المزرعة). كنتُ أقدِّم هذا الدفتر أو ذاك بما يلائم الوضع.

- «لا يمكنكِ أن تخلطي بين الدفترَيْن»، حذَّرني «د».

- «بالطبع».

وإن لم يكُن ذلك ليصنع أدنى اختلاف في حقيقة الأمر، فمن شبه المستحيل أن تمتلك المُعلِّمةُ ما يكفي من الطاقة لحفظ الخط السردي لكل دفتر، مع الأخذ في الحسبان أن عدد الطلَّاب في الفصل يربو على الثلاثين. أما أمي، فلقد لزمت الصمت. مع أنها، بالتأمُّل في الأمر مليًّا، لا تبدو لي الآن بالمرأة الصموت. كل ما في الأمر

أنها كانت حزينة، فلم يسمح لها الحزن بالانتباه إلى التفاصيل.

كل طريق، وكل بلدة، وكل مدينة، شغلَت موقعًا في ذلك التعليم الموازي الذي تلقَّيتُه بشأن طريقة سير الأمور. ولو كانت هناك نشأة مركزية للكون، مُتَّصلة بمنتجات كرامپ، فلقد أخذ «د» يضيف إليها عناصر جديدة كلَّما اقتضَت حاجتي إلى الفهم، من قبيل العلاقة بين الزمان والمكان، على سبيل المثال.

- «أتذكرين ما أخبرتُكِ بشأن قصة «ر»؟»، سألني «د».

- «الذي تظاهر بالموت؟»

- «كلا، بل الذي شغل منصبًا في البلدية، واستخدم ميزانية العام لبناء مهبط طائرات، حيث لم تهبط طائرة واحدة قطّ، بالطبع».

- «أذكره. ذلك الذي وضع مخطط الاحتيال منذ الطفولة. وشهد زملاؤه في المدرسة أنه كان يمضي يومه في صنع الطائرات الورقية».

- «هو نفسه! والآن، فكّري، لو جرَت تلك

الواقعة في إحدى المدن، فكم يستمرّ أهل المدينة في سرد القصة؟»

- «أسابيع».

- «وماذا لو أنها وقعَت في بلدة؟»

- «شهورًا».

- «ولو وقعَت في بلدة صغيرة؟»

- «أعوامًا».

- «بالضبط، بالضبط».

تابعنا الرحلة في صمت، وبعد أن قطعَت السَّيَّارة الرينوليتا كيلومترًا واحدًا على وجه التقريب، قلتُ لـ«د»: إن هناك احتمالًا رابعًا:

- «لو وقعَت في بلدة صغيرة جدًّا جدًّا جدًّا، لظلّ أهلها يسردون قصة «ر» إلى الأبد».

قال «د»: إن ذلك «شيء مُرجَّح»، وبعد نصف كيلومتر آخر، أردف أن الفيزياء ما زالت لم تجد تفسيرًا لتلك الظاهرة بالتحديد؛ لأنها ما زالت لم تعثر حتى على تفسير لوجود ذلك النوع من البلدات.

أما العلاقة بين الزمانِ والمكانِ، فلقد أُضيفَت إليها نظريةُ تطور الأنواع، وتمدُّد الكون، وحتى بعض الأفكار الأولية في الفيزياء واللاهوت.

أخذ فهمي للعالَم يتمدَّد كالإسفنجة، لو أضفنا إلى ما سبق كلَّ ما سمعتُ في: متاجر الأدوات، والمقاهي، والفنادق.

حين رويتُ لأصدقائي تلك الذكريات بعد أعوام، حاولتُ أن أوضح لهم أن «د» لم يكُن غافلًا -كما أطلقَت عليه جدّتي لأمي: «الغافل»- بل إنه كان رائدًا من رواد التربية المنهجية.

١٧

مضيتُ برفقة «إ» مرتَيْن، بينما كان «د» يتقاضى مستحقاته.

كلا، لم يكُن تصويرُ الأشباحِ كتصويرِ النَّاس.

ذلك أن العثور على الأشباح يستغرق وقتًا أطول كثيرًا، ويرغمك على طرح الأسئلة، وإجراء الاتصالات

من الهواتف العمومية، والتحدُّث إلى أشخاص يخافون الإفضاء إليك بما يعرفون.

«عندما يذبل الشبح يغدو عظامًا».

«ولو زاد ذبولًا، صار ترابًا».

«لا بدّ من العثور عليه قبل أن يصير ترابًا».

هكذا أوضح لي «إ».

وحين فرغ من عبارته، راودني شعورٌ غريب لأول مرة، وصَّفتُه بأنه «شعور الفجوة»[1].

١٨

يوم تعرَّف «إ» -المُصوِّر- بأمِّي، ران صمتٌ غريب.

كان ذلك في نهاية الأسبوع، حين جاء «إ» إلى بيتنا حاملًا جهاز عرض أفلام قديمًا من أجل «د». ولكن الجهاز لم يعمل، مهما حاولا تشغيله.

---

(١) «شعور الفجوة»: حزنٌ يستحوذ عليك من دون أن يكون لك أنت. (المُؤلِّفة)

وهكذا دعاه «د» إلى تناول الغداء؛ لئلَّا تضيع الرحلة سدى.

عند ذاك دخلَت أمي التي كانت تشذِّب شجرة المغنولية في الحديقة.

قدَّم «د» كلًّا منهما إلى الآخر، فتبادل «إ» وأمي نظرة مألوفة. وحزينة.

- «بيننا سابق معرفة»، قالت أمي.

- «كان لنا صديق مشترك في الجامعة»، أردف «إ».

وبدءًا من تلك اللحظة صار كل شيء غريبًا. قُدِّم الغداء، ولكن «إ» لم يتكلَّم لا عن الصور الفوتوغرافية، ولا عن الأشباح. أما أمي، التي طالما بدَت وكأنها في كوكبٍ غير الكوكب، فلقد رأيناها في تلك المرة كأنها تجاهد للوصول إلينا آتيةً من مجرة أخرى.

أما أنا، وأنا التي ألفتُ إنقاذ المواقف المحرجة -لم يكُن هناك اختلاف كبير بين منضدة البيع في متجر الأدوات ومائدة بيتي-، فلقد عرفتُ بالحدس أن الشيء الوحيد الذي يجمعنا في تلك اللحظة، الشيء الوحيد القادر على إنقاذنا، هو الفيلم الذي شاهدناه على شاشة

التلفزيون في اليوم السابق. كنتُ أنا وأمي قد شاهدنا الفيلم. كما أخبَرَنا «د» حين وصل بأنه قد شاهده أيضًا. أما «إ»، فلقد شاهد أفلامًا كثيرة جدًّا، ولذا فمن المُؤكَّد أنه يعرفه.

بدأتُ أتكلَّم عن فيلم «جسر على نهر كواي».

وما هي إلَّا خمس دقائق حتى رحنا نتكلَّم عن فيلم «جسر على نهر كواي».

ثم بدأ «د» و«إ» يتكلَّمان عن الحرب العالمية الثانية، وعن الصينيين (كان اليابانيون والصينيون يسكنون بلدًا واحدًا في ذهني آنذاك). وتبقَّى لنا من الوقت مُتَّسعٌ للصفير على أنغام أغنية الفيلم.

وفيما نحن على تلك الحال، وفيما كنتُ أنظر إلى صحن حساء الهليون، عشتُ حالةً من التجلِّي، الأولى في حياتي.

كان خطٌّ من البخار يتصاعد من الصحن، فخيّل إليَّ أنه يغدو شبحًا بحجم إبهامي، ثم يتبعه شبح ثانٍ، وثالث، ورابع. مضَت قافلةُ الأشباح تنبثق من صحن الحساء، وتحوم فوق المائدة، في محاولة للاتصال مِن

الحياة الأخرى بهذه الحياة. ولكن سدى. يا للأشباح المسكينة!

أفقتُ من الغيبوبة، وحدَّثتُهم عن رؤيتي الغريبة، فأجهشَت أمي بالبكاء. عندئذٍ قال «إ» إن وقت الذهاب قد حان.

لم يعثر «د» في دليل منتجات كرامپ على شيء واحد يمكن القياس عليه لفهم ما يجري. غير أنه قال لـ«إ»:

- «لا توجد مشكلة، ولكن اترك لي جهاز عرض الأفلام من فضلك».

أوصدَت أمي باب حجرتها طوال البقية الباقية من المساء، بينما بقيتُ أنا و«د» في حجرة الطعام.

- «لو أصلحنا جهاز العرض، فأي فيلم نشاهد؟»، سألتُ.

- «فيلمًا عن القراصنة».

- «هيا بنا!»، قلتُ متظاهرةً بالحماس الجارف، وأنا أعانق «د»، في لفتة غير معهودة من لفتات المودة التي لم نألفها لا أنا ولا هو.

لطالما جاءت حالات التجلِّي متبوعةً باكتشاف في أغلب الأحيان، كما تأكَّد لي على مرِّ الأعوام. ويومذاك أدركتُ أن:

«د» وحيد.

وأنني وحيدة.

وأن الحياة مكانٌ منعزل.

وأن تلك الأمور تندرج تحت بند «الأشياء التي كانت على ما هي عليه، ببساطة».

وهكذا تركتُ «د» مُستمِرًّا في محاولة تشغيل الجهاز، وذهبتُ إلى حجرتي لأتابع قراءة قصصي المُصوَّرة.

١٩

لم تكن متاجر البلدات في حالة فوضى. وإنما سادها نظام ديناميكي. لم تقتضِ الضرورة أن يكون المرء في غاية البراعة لفهم طبيعتها الحقيقية؛ لأنها منظومات أناركية أولية. نجدها على النحو التالي، من البسيط إلى المُعقَّد:

- متاجر تُرتَّب فيها الأشياء وفق طبيعة واحدة (مظلات وحسب، قبعات وحسب، تبغ وحسب).

- متاجر تُنظَّم فيها الأشياء وفق معايير مُتعلِّقة بالمساحة (كل ما يتَّسع له المكان بين الإبرة وآلة جزّ الأعشاب، من اليمين إلى اليسار).

- متاجر تُرتَّب فيها الأشياء وفق تسلسل عددي لم تُحَلّ شفرته بعد (حيث تُعرَض في الواجهة سبع شوكات، وخمسة عشر قميصًا، وثمانية عشر دلوًا من البلاستيك، وهكذا).

أما الأخيرة، فهي الفئة التي استرعَت انتباهي أكثر من كل ما عداها. إذ فكَّرتُ في أنني لو اكتشفتُ ذلك التسلسل لاقتربتُ أكثر قليلًا من فهم التصنيفات التي نظَّم بها النجَّار الأعظم هذا الكَوْن.

وعلى كل حال، كانت المتاجر المختلفة تمثِّل الاحتمالات التي يمكن أن تصل إلى الدماغ البشري عن طريق القياس.

متجر الأحذية

من بين جميع المتاجر، كان أحبّها إلى نفسي متجر أحذيةٍ لمهاجرٍ ألماني ولَّى هاربًا من الحرب. وبينما هو يعدو هاربًا، انتبه الألماني إلى ما يلي:

١. لا بدّ أن يزحف العدو عَبْر المكان حتى يخوض ساحة القتال.

٢. المكان محكومٌ بزمن مُحدَّد.

ما يعني أنه لو تمكَّن المرء من إيقاف الزمن لأوقف زحف العدو أيضًا.

أما الألماني المزهو بذلك الاكتشاف، الذي كان صانع أحذية أبًا عن جدٍّ، فلقد عمل جاهدًا حتى يجمع المال الكافي لتستمرّ تجارة العائلة على الأرض الجديدة. وبعد الافتتاح الذي حضره أهل البلدة كلهم -عدا صاحب متجر الخضراوات، المهاجر الإنجليزي الذي يمقت الألمان-، انهمك الألماني في تحقيق الهدف الرئيسي: إيقاف الزمن.

كانت الآلية التي اتّبعها بسيطة: إذ لم يبع في متجره سوى أحذية من أواخر الأربعينيات، زمن السلام.

متاجر مُمَيَّزة

كما كانت هناك متاجر مُمَيَّزة. متاجر كبرى بالقياس إلى حجم البلدة. أشبه ما عرف أهل البلدة بالسوبرماركت.

كان البائع يعقد صفقةً مع واحد من تلك المتاجر، فتشغل الشحنة عربةً كاملة من عربات القطار، وتستغرق التعبئة يومَيْن، حسبما قيل.

لم يكُن يتردَّد إلى المتجر بائعٌ فحسب، بل عددٌ من الباعة في آن واحد.

ذاع صيت متجر التركي، حيث لم يكُن البائع يكتفي بإطلاع صاحبِ المتجر على دليل المنتجات والعينات. بل اقتضَت الضرورة من البائع أن يمتلك القدرة على التحدُّث إليه طوال ثمانٍ وخمسين ساعة، أو اثنتين وسبعين ساعة، تكاد تكون مُتَّصلة. وهكذا كان الباعة يخلدون إلى النوم ليلًا في حجرات البيت الملحق بالمتجر. ثم يستأنفون قصة الليلة الفائتة في صبيحة اليوم التالي، وقد استحوذ عليهم خُمارٌ لا ينجو من تأثيره إلَّا صاحب البيت، حسبما يبدو.

كان الباعة يمضون الأيام التي تسبق اللقاء في إعداد القصص، فلو أمضى التركي سهرةً هانئة، يشتري منهم جميعًا كميات هائلة من البضائع. وإلَّا، فهو يكتفي بشراء الضروريات التي كانت تشكِّل كمية لا بأس بها على كل حال.

ولكن لا يهمّ كثيرًا؛ لأنهم يأكلون ويشربون كأنهم في ألف ليلة وليلة طوال المدة التي تستغرقها عملية البيع التي تشبه العدو لمسافات طويلة.

لم تُوجَّه الدعوة إلَّا إلى بعض الباعة، كما تناقلَت الألسن في المقاهي. أما أولئك الذين ذهبوا للقاء التركي، فصار في إمكانهم أن يعدّوا أنفسهم باعةً بحقّ. ولو ملأ الواحد منهم عربة القطار بالبضائع، صار بطلًا حقيقيًّا في حرب نصف وثنية ونصف دينية.

كانت الشحنة تمرّ على مسارات القطار المُمتدّة قُرب الطَّريق بعد خمسة عشر يومًا -المدة التي تستغرقها عملية الشحن-، وعند ذاك يُطلِق الباعة آلات التنبيه في سياراتهم.

كان صوتًا بديعًا، لا يفهمه سوى أولئك الذين اصطفَتهم سماء المبيعات.

٢٠

قرأ «د» في بعض المجلات أن العامل السعيد أكثر إنتاجيةً والتزامًا بالعمل. ولذا كنا نتردَّد إلى سينما «إ»، سينما الجامعة، بين حين وآخر، بدلًا من الذهاب إلى متاجر الأدوات. كنا نذهب إلى السينما صباحًا، لا في موعد العرض المفتوح للجمهور (العرض المستمر من الإثنين إلى الخميس، بدءًا من الرابعة مساء، بأسعار مُخفَّضة يوم الأربعاء)، فنجد السينما خاليةً من الحضور دائمًا.

أعتقد بأن «د» و«إ» لم يتَّفقا على تلك الزيارات قطّ. كنا نذهب إلى السينما، فنجد «إ» هناك، ببساطة. وهكذا نجلس في منتصف القاعة، بينما تُطفأ الأنوار، ويبدأ العرض. يتناهى إلينا صوت الأسطوانة أولًا، وما هي إلَّا ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ حتى يبدأ الفيلم.

في تلك الفترة التي كنتُ أتقاضى خلالها أجري عن الإسهام المُبكِّر في العمل بتلك الطَّريقة، أذكر أننا قد شاهدنا:

عرضًا خاصًّا لتشارلي تشابلن (مرتَيْن).

«قمر من ورق» (مرتَيْن).

«البالون الأحمر» (ثلاث مرات).

كما شاهدنا فيلم رسوم متحركة قصيرًا غريبًا بعنوان «قصر الرمال» (مرة واحدة)، ومنذ ذلك الوقت لا عاودتُ مشاهدته ولا سمعتُ أحدهم يتحدَّث عنه من جديد. لعلّني قد تخيَّلتُه.

كنا نبكي مع كل فيلم، ونجفِّف دموعنا، ونتمخَّط بصوتٍ عالٍ بمنديلَيْن كلاهما أبيض مكويٌّ على أكمل وجه، كان «د» يحملهما في جيبه دائمًا: واحد من أجله والآخر من أجلي.

وبذلك الحسّ الدرامي الذي واجهنا به الأفلام -والحياة-، كنا نطلب إعادة الفيلم بطريقة من اختراعي أنا، بالصفير والصياح «أعيدوا الستار!».

جاءت العبارة بما لا يوافق قواعد المنطق والنحو. وعلى الرغم من ذلك، أدرك «إ» أنه يجب عليه أن يعيد الفيلم مرة أخرى.

- «لا يوجد أدنى إزعاج، بالعكس، ففي هذا الزمن يمتنّ المرء للحضور المُتحمِّس»، كان يقول.

وبينما نحن في طريق الخروج من سينما الجامعة، بعد مشاهدة فيلم «الطفل» للمرة الثانية، رأينا أمي عن بُعد.

كانت في إحدى الباحات، مع جمع من النَّاس الذين يتحدَّثون بجدية وانضباط. تعرَّفتُها بالنظر إلى السترة الجلدية والحقيبة ذات النجمة الحمراء.

ماذا تفعل أمي هناك؟ أمي التي تركَت الجامعة قبل سنوات.

عمَّ تتحدَّث مع ذلك الجمع مِن النَّاس؟

مَن هم؟

مِن المُحتمَل أن تكون أمي، التي رأيتُها عن بُعد كأنها واحدة من الدُّمَى التي أملكها، قد رأتنا بدورها، فأضافَت إلى قائمة الأسئلة سؤالًا آخر:

ماذا نحن فاعلان هناك؟ ماذا يفعل «د» هناك في يوم عمل؟ وماذا أفعل أنا هناك في يوم دراسي؟

وعند هذه النقطة، تبقَّت أمامنا ثلاثة احتمالات:

أولًا: الاستمرار في إضافة المزيد من الأسئلة إلى القائمة: ماذا يفعل الإنسان على وجه الأرض؟ وما معنى الحياة؟

ثانيًا: التحدُّث إلى أمي ومحاولة العثور على إجابة معًا. ولكن من شأن إجابة واحدة أن ترغمنا على أن نضع على الطاولة بعض التفاصيل بشأن تعليمي الموازي، وبشأن أصدقاء أمي المجهولين.

ثالثًا: نسيان الأمر برمّته. ربما لم تكُن أمي، بل امرأة قريبة الشبه، لها ذائقة أمي، حتى إنها تستخدم ثياب أمي نفسها، ولكنها امرأة أخرى.

«أصوِّتُ للاحتمال الثالث». لم أقُلها، ولكني فكَّرتُ في ذلك.

«أصوِّتُ للاحتمال الثالث». لم يقُلها «د»، ولكنه فكَّر في ذلك.

حسنًا، اتفقنا فيما بيننا، في تلك المساحة من الصمت التي تسمح بها الصداقة. لأن «د»، بحلول ذلك الوقت، قد صار عندي في منزلة ربّ عملٍ وصديق من أولئك الأصدقاء الذين يعرفون أنه: غالبًا ما يكون الصمت الحسن أفضل من النصيحة السديدة.

وهكذا قطعنا صحن الجامعة بخطى سريعة. مضى «د» يحمل حقيبته المصنوعة من الجلد الأسود، ومضيتُ أنا أحمل حقيبة المُمرِّضة.

ركبنا السَّيَّارة الرينوليتا، فأشعل كلٌّ منا سيجارة، وعلَّمني «د» كيف أصنع حلقات بالدخان، فيما أظنُّه علامةً على الإقرار بفهمي المُبكِّر لتعقيدات الإنسان.

حلقات صغيرة راحت تقطع المدينة، وتتمدَّد، وتتلاشى هناك، بعيدًا.

٢١

صرنا نموذجًا لفريق المبيعات، حتى بدأ الزملاء في «القطاع» يحلِّلون ذلك النموذج، ويطرحون علينا الأسئلة. بل إن عددًا من البائعين حاولوا إقناع الأبناء

بمرافقتهم. وإن ضاعت محاولاتهم سدى، بسبب الأمهات المرتابات المسرفات في حماية الصغار.

عند ذاك خطرَت لـ«س»، موسى المبيعات، فكرةٌ حدَّثته بأن يستأجرني، فلم تبدُ فكرة سيئة.

أوضح الأمر على النحو التالي: يعمل «د» و«س» في مجالَيْن يختلف كل منهما عن الآخر. متاجر الأدوات من جهة، ومتاجر العطور من جهة أخرى. ما يسمح لي بأن أرافق كليهما في رحلة واحدة، مع تبديل مظهري بصورة طفيفة، من دون تعقيد، فمُجرَّد قبعة تكفي. وسوف يشتري «س» القبعة بنفسه. لن يلاحظ أحدٌ، كائنًا من كان، أنني أصبح ابنةَ الأول، وأمسي ابنةَ الثاني أو ابنة شقيقته.

لم يتطلَّب الأمر أكثر من التنسيق وبعض المرونة، المرونة من جانبي أنا.

قال «س» إنه سوف يعطينا نسبةً من أرباح المبيعات التي يحقِّقها وهو برفقتي.

رحتُ أنصت إلى المخطَّط ببالغ الاهتمام، وأتخيَّل النسبة والقبعة الجديدة. كان «د» يعطيني خمسة بيزو

عن كل مئة يجنيها عن طريق منظومة المقايضة، ولكني أيقنتُ بإمكانية الحصول على عشرة بيزو عدًّا ونقدًا عن كل مئة بيزو في تلك المرة، آخذةً في الحسبان جهودي الإضافية وبراعتي الصاعدة أمام مناضد البيع.

- «بالطبع لا»، قال «د» مُفكِّرًا في محاربي الساموراي.

كان المنطقي أن يفكِّر في السادة الإقطاعيين، ولكنه فكَّر في الساموراي، ربما لأنه ما زال مهووسًا بإصلاح جهاز عرض الأفلام الذي كان من طراز فوچي فيلم. ثم أردف «د» قائلًا:

- «كلا، مهما كان الدافع».

لكلِّ مجتمعٍ قائم على المُثُلِ مبادئ شرف، وقواعد سارية، «**مبادئ**». نطق «د» بالكلمة الأخيرة مُشدِّدًا مضفيًا عليها رنينًا خاصًّا.

ثم ألقى خطابًا أوضح فيه كيف يمكن أن يؤدِّي خرق مبادئ الشرف -ما دامَت تلك المبادئ فعَّالة، وبصرف النظر عمَّا إذا كانت شريفة أو غير شريفة- إلى نبذِ الشخص منتهك المبادئ من قِبل سائر أعضاء المجتمع، والأدهى أنه قد يؤدِّي إلى طرده من ذلك المجتمع.

نظرنا إليه أنا و«س» في صمت، ونحن لا نفهم إلى أي مرفأ يمضي ذلك المركب.

- «من الممكن أن تذهب برفقتك. أما النقود، فإياك وأن تأتي حتى على ذكرها»، ختم «د» حديثه.

كنتُ أستطيع الاعتراض، ولكني عرفت أنني ما زلتُ لا أُعد محاربة ساموراي بحق في مجتمع المبيعات، مع أنني قد أبليتُ بلاء حسنًا. كنتُ محاربة ساموراي صغيرة، تذود عن قلعة صغيرة، قادرة على تنفيذ عملية هاراكيري[1] صغيرة. لا أكثر، ولا أقل. رأى ثلاثتنا النقطة الأخيرة بوضوح. وفي تلك اللحظة، كان يجب على كرامتي الصغيرة أن تكتفي بهذا القدر.

لزمتُ صمتًا رواقيًّا، (فلم تفضحني سوى ركلة خفيفة وجَّهتُها إلى مقعد خالٍ)، ولكني لم أتمكَّن من ردِّ نظرتي الغضبى عن لقاء نظرةِ «س» السعيدة. عند تلك النقطة تحديدًا، حيَّدَت النظرتان بعضهما بعضًا.

---

(١) هاراكيري: طقوس الانتحار عند محاربي الساموراي اليابانيين. (المترجم)

والأمر أنني، في قرارة نفسي، شعرتُ نحو «س» بشيءٍ من المودة.

- «متى نبدأ؟»، سألتُ ناسيةً أمر نسبتي من الأرباح، واستعدتُ حسَّ المهنية.

- «غدًا بلا أدنى تأخير»، قال «س».

- «غدًا أحضرُ حفلَ عيد ميلاد في المدرسة»، قلت.

- «إذن، فبعد غد»، قال «د».

- «حسنًا»، قلتُ أنا و«س» في وقت واحد.

وعددنا ذلك التزامن بيننا علامةً على إتمام الاتفاق.

٢٢

كانت طريق العودة أحبّ الطرق إلى نفسي. ليس لأن الدرب يفضي إلى بيتي، بل لأنني أحببتُ أثرَ الضوء في آخر المساء، ذلك الأثر الذي يصبغ كل شيء بالبساطة.

في تلك السَّاعة، يبدو العالَم كذلك النموذج المُصغَّر الذي رأيتُه في أحد متاجر الأدوات الكثيرة التي زرناها.

كان أحدهم قد قطع الأشجار ورصّها على ذلك الخطّ المستقيم الذي سمَّيناه «الطَّريق» عملًا بالعرف السائد، كما نحت بيتًا ونصبه هناك (بالمقصّ الفولاذي والإزميل). وبذلك المنطق الذي كان الضوء يحدوني إليه، فلقد شكَّلَنا أحدُهم نحن أيضًا، ووضَعَنا هناك.

«النجَّار الأعظم»، قلتُ بصوت خفيض، وكأنني أريد أن أزعج شخصًا ثقيل السمع.

٢٣

بدأتُ أعمل ورديتَيْن في اليوم الواحد، فارتفعَت نسبة الغياب عن المدرسة بقدر الزيادة التي شهدَتها ساعات العمل.

استبق «د» المخاوف التي كان من الممكن أن تراود المُعلِّمين في مدرستي. وكيلا يتَّصل أحدهم بوالدتي، اختلق «د» قصة المرض الذي أصاب جدَّتي لأمي التي كانت عندي في منزلة الأم الثانية، وجمعني بها رابطٌ خاص (رابط من كرامپ، سمكه ١٢ مليمترًا)، ولذا أردتُ أن أهنأ بأوقاتها الأخيرة على الأرض بأقصى

ما يمكن. الأمر الذي تفهَّمه «د»، كما تفهَّمَته المدرسة أيضًا. كيف لا تفعل وهي مدرسة كاثوليكية، علمًا أن ربَّ المسيحيين قد بارك تلك الصلة القوية التي تجمع الأجداد بالأحفاد.

وهكذا بدأتُ أعيش مهنتي بقدر أكبر من الحرية، وقد تخفَّفتُ من الأعباء المؤسسية.

صرتُ أتغيَّب عن المدرسة ثلاثة أيام كل أسبوع -لأن جدتي الزائفة تعيش في بلدة أخرى- وقسَّمتُ وقتي حسب المجال: النهار لمتاجر الأدوات، والمساء لمتاجر العطور ومستحضرات التجميل.

لم أتمكَّن من السفر برفقتهما في الرحلات الطويلة (لأننا ما زلنا لم نجد الطَّريقة التي نبرِّر بها لأمي المبيت خارج المنزل في غير أوقات الإجازة المدرسية). ولكن الفوز بثلاثة من أصل خمسة أيام دراسية قد مثَّل خطوةً تكاد تكون في أهمية الخطوة التي قطعها روَّاد الفضاء.

متاجر عطور ومستحضرات تجميل

«هيا بنا نذهب لرؤية ذلك اللصّ ابن العاهرة»، هكذا كان «س» يقول كلَّما همَّ بدخول أحد متاجر العطور، بعبارة يطرأ عليها تغيير طفيف لو كانت مديرة المتجر أو صاحبته امرأة، فتغدو: «هيا بنا نذهب لرؤية تلك الساقطة اللعينة».

وبالنظر إلى الحرارة التي يردِّد بها تلك الكلمات كلَّما ذهب لزيارة عميل، كان «س» يبدو كمن يلتمس الإذن من ربٍّ سليط اللسان مثله للبدء في العمل، العمل الذي يتمثَّل في بيع: الشامبو، وكْريم اليدَيْن، وطلاء الأظافر، ومزيل طلاء الأظافر، وظِلّ العيون، وأحمر الشفاه.

كانت لـ«س» طريقته الخاصة في تحقيق العدالة: عن طريق إضافة نسبة إلى الأسعار التي تقدِّمها إليه الشركة. «ولكن سيانِ، فأصحاب الشركة صينيون حمقى لا يطلعون على الفواتير؛ لأن أولئك الصينيين الملاعين لا يجيدون حتى القراءة».

امتلك «س» تلك الفضيلة، فضيلة تفسير كل شيء بعبارة بسيطة، مباشرة.

كانت آلية العمل واحدة تقريبًا، فأنا أدخل إلى المتجر بحذائي اللامع وحقيبتي البلاستيكية والقبعة التي اشتراها «س» من أجلي، ثم أرشق المسؤول بنظرةٍ من عينَي.

كان في قلوب الآخرين شيءٌ، عرفتُ كيف ألتقطه (وبالآخرين أعني مسؤولي المتاجر). لطالما كان هناك نسيجٌ مرهف من الآلام الطفيفة والانتصارات الصغيرة عالقًا بالحدقتَيْن دائمًا، ما لم يخلُ الأمر من تلك الآلام والانتصارات (يكفي النظر إلى الشارع الذي يكسوه الغبار، ومنضدة البيع). قلائل هم الذين عرفوا ذلك. وأنا واحدة من أولئك القلائل. من أجل هذا كنتُ أتدرَّب أمام المرآة على النظر إلى الآخرين بنظرات ثاقبة، آلية التواصل التي لا تخيب.

لم أكُن أبيع شيئًا، بل إنني مضيتُ أتدرَّب على رياضة ذهنية مُتطوِّرة.

ولقد نجح الأمر. إذ كان مسؤولو المتاجر يرون في شخصي مَواطِن ضعفهم، فيتخلّون عن الحذر.

ومن جهة أخرى، لم يعُد «س» مُجرَّد ابن عاهرة -ما زال في نفسي شيءٌ يقلِّد «س» متى ذكرتُه، ما زال في نفسي شيء يتوكَّل على ذلك الرَّب سليط اللسان- وإنما صار ابن عاهرة قادرًا على الشعور بالقلق على «ابنة شقيقته المريضة».

كانت الفواتير تُسدَّد، فيجد كلُّ مُنتَج موضعه في هذا العالَم: الشامبو، وكْريم اليدَيْن، ومزيل طلاء الأظافر.

لم يجد «س» أدنى مشكلة في أن يخرق الاتفاق ويعطيني نسبةً من أرباح المبيعات نقدًا. واحد في المئة من الأرباح. كان مبلغًا هزيلًا، ولكنها نقود حقيقية، نقود سرّية يسلِّمني «س» إياها في ظرف آخر اليوم، بعد أن يحسب النسبة بآلته الحاسبة.

كانت الميكانيكا سماوية[1]، كظلِّ العيون.

---

(١) الميكانيكا السماوية: فرعٌ من علوم الفلك يُعنى بدراسة حركة الأجسام في الفضاء الخارجي. (المترجم)

٢٤

مع «س» تعلَّمتُ أن الكبرياء تجارةٌ رابحة، وخضتُ أولى مقارباتي لنظرية تعدُّد الأكوان: إذ كانت لـ«س»، في حياة موازية، امرأةٌ أخرى وابنٌ آخر من عمر الابن الذي أنجبه «س» من الزوجة التي كنتُ أعرفها.

بينما نحن نتناول القهوة، تلقَّى «س» رسالةَ تلغراف من مُرسِلٍ يعرفه بالقدر الكافي حتى يوجِّه الرسالة إلى المقهى.

«ابنة العاهرة اللعينة»، قال «س»، ثم أوضح لي أنه يجب علينا أن نتوقَّف مرتين في الطَّريق إلى البلدة مساء ذلك اليوم.

في المرة الأولى توقَّفنا في متجر عطور سبق لنا أن ذهبنا إليه، وهناك طلب «س» أن تُسدَّد الفاتورة قبل أن يوضع ظلّ العيون وأحمر الشفاه ومُثبِّت الشعر كلٌّ على الرفّ الخاص به. اضطُرِرتُ إلى الإغراق في الدراما أكثر من المعهود، بطلب من «س». بل إنني تظاهرتُ بالإغماء حين ذكر «س» اسمَ شقيقته، أمي المريضة المزعومة.

«الحزن يطمسنا»، قال وهو يحملني ويعدّ النقود.

وفي المرة الثانية توقَّفنا أمام أحد البيوت.

وضع «س» ظرف النقود في جيبه قائلًا:

- «انتظريني هنا».

فتحَت البابَ امرأةٌ، فدخل «س». وبعد حينٍ أطلّ من النافذة «س» صغيرٌ.

تبادلنا النظرات، وحيَّا كلٌّ منا الآخر بإشارة من يده.

وجدتُ احتمالَيْن: إما كان ذلك الباب الذي عبره «س» دربًا يفضي إلى الماضي، ما يعني أن الطفل الذي ينظر إليَّ من خلال النافذة هو «س» قبل أربعين عامًا. وإما كان لـ«س» ابنٌ بخلاف الأبناء الذين عرفتُهم (زملائي في المدرسة).

بعد حين قرعَتْ باب السَّيَّارة السيترونيتا يدٌ صغيرة، وقدَّمَت إليَّ كوبًا من العصير.

وعندما رددتُ الكوب خاويًا، زجّ الطفل بنصف جسده من خلال نافذة السَّيَّارة، ثم عانقني.

وطوال الوقت الذي استغرقه ذلك العناق، تظاهرتُ

بأنني أنا الأخت التي لن يعرفها أبدًا. تظاهرتُ أنا، وتظاهر الطفل، وتظاهر «س»: وإذا العالَمُ يغدو مسرحًا هزليًّا.

نظرتُ إليه وهو عائد إلى البيت، فعرفتُ أن السماح للأشياء بأن تمرّ أفضل. خرج «س» من البيت صافقًا الباب، فجاء متبوعًا بزهرية انطلقَت من الداخل عَبْر النافذة. ركب السَّيَّارة، حيث وجد نفسه أمام صمتي المطبق.

ران صمتٌ ثقيلٌ إلى حدٍّ جعل «س» يترجَّل عن السَّيَّارة ليشتري المُثلجَّات من أجلي بعد تعبئة السَّيَّارة في محطة الوقود التي مررنا بها.

قرَّرتُ الاحتفاظ بما رأيتُ في منطقة «الأشياء التي ربما أكون قد تخيَّلتُها». ولَمَّا كنتُ عاجزةً عن التزام الصمت إلى الأبد، فلقد اقترحتُ لعبةً تعلَّمتُها في درسِ الرياضيات موضوعًا للحديث؛ لأن تلك اللعبة قد صُمِّمَت بصورة مثالية حتى يتكلَّم المرء من دون أن يقول شيئًا.

- «اختَر رقمًا من ١ إلى ٩، واضربه في ٩».

- «حسنًا».

- «والآن، اجمع العددَيْن اللذين يتألَّف منهما الناتج، ثم اطرح ٧، وفكِّر في الحرف الذي يقابل الناتج النهائي في الأبجدية».

- «ماذا؟» (لم يكُن «س» صبورًا على تلك الألعاب، ولكنه استمرّ في اللعب خشية أن أستغرق في الخرس مرة أخرى).

- «١ يقابله ألف، و٢ يقابله باء، و٣ يقابله تاء...».

- «فهمت».

- «هل عرفتَ الحرف؟».

- «أجل».

- «والآن، فكّر في بلد يبدأ اسمه بذلك الحرف».

- «حسنًا».

- «ثم فكّر في حيوان يبدأ اسمه بالحرف الثاني من اسم ذلك البلد».

- «أما زال أمامنا الكثير؟»

- «هذه آخر خطوة. هل فكّرتَ في اسم الحيوان؟»

- «أجل».

- «ولكن بلجيكا تخلو من اللاما».

- «وبأي طريقة لعينة فعلتِها؟»

لو ضربنا أي رقم من ١ إلى ٩ في ٩، ثم جمعنا العددَيْن اللذين يتألَّف منهما الناتج، لكان حاصل الجمع ٩. وبطرح ٧ من ٩، يصير الناتج النهائي ٢، الذي يقابله حرف الباء حسب ترتيب الحروف الأبجدية. يفكِّر ٩٩٪ من البشر الذين يُسألون عن بلد يبدأ اسمه بحرف الباء في بلجيكا. كما يفكِّر ٩٧٪ من البشر الذين يُسألون عن حيوان يبدأ اسمه بحرف اللام في اللاما. كان هامش الخطأ في تلك المسألة ضئيلًا جدًّا.

ولكني، بدلًا من البوح إليه بذلك، قلتُ لـ«س»: إنني قد خمَّنت.

- «خمّني الإجابة عن هذا السؤال أيضًا: أيشترون منا البضائع في متجر العطور الذي نذهب إليه؟»

- «كلا، لن يشتروا منا شيئًا».

- «إذن، فلقد انتهينا من العمل اليوم»، قال «س» وهو يدور بالسَّيَّارة في وسط الطَّريق عائدًا من حيث أتى.

- «والآن، هيا بنا نأكل حتى ننفجر»، ختم حديثه.

تركنا السَّيَّارة في الساحة وذهبنا إلى المقهى، حيث طلبنا فنجانَيْن من القهوة: أحدهما ممتلئ حتى الحافة (من أجلي)، والآخر ممتلئ حتى نصفه (من أجل «س»).

كان «س» يملأ النصف الفارغ بالويسكي من قارورة يحملها في جيبه دائمًا، كما هي عادته التي عرفها النُّدُل (لأن «س» يتردَّد على المقاهي نفسها منذ عشرين عامًا). لم يعُد النُّدُل يحاولون الوشاية به؛ لأنهم يتخيَّرون معاركهم بحذر، شأنهم شأن الباعة المسافرين، كما استطعتُ أن ألاحظ في تلك الأعوام.

- «الغرض من هذا أن أتمكَّن من احتمال المتاعب، أتفهمينني يا «م»؟»

- «أفهمك».

واحتفاءً بذلك التواصل الذي لا يجري بين البشر كل يوم، تناولنا قهوتنا مرفقةً بأربع قطع من كعك الحليب المُكثَّف والزبد. أتينا عليها تحديدًا عندما جاء «د» ليأخذني.

٢٥

أما الأمور التي اكتشفتُها خلال رحلات العودة إلى البيت، فلم تقتصر على طريقة سير الحياة فحسب. إذ كنتُ فوق ذلك أدوِّن الحسابات وبعض الرسائل في الدفتر الذي أحمله في حقيبتي دائمًا.

في واقع الأمر، كان ذلك أشبه بوصيةٍ مُبكِّرة، مضيتُ أدوِّنها في الصفحة التي أعقبَت قائمتَي «المقايضات» و«النقود» (علمًا أنني قد كتبتُ القائمة الثانية بشفرة استبدلتُ فيها الحروف المتحركة بالأرقام).

جاءت وصيتي بعنوان «المستقبل»، وفيها رحتُ أوزِّع أملاكي على معارفي. حفلَت الوصية بمواضع الشطب، إذ كنتُ أنقل تركتي من هنا إلى هناك بما يلائم شعوري قُرب معارفي أو البُعد عنهم. كانت التغيرات التي تطرأ على الوصية كل يوم رهنًا بأولئك الذين أمضي معهم الساعات الأخيرة في الأساس، فلو أمضيتُ المساء برفقة «د»، حوَّلتُ إليه في الليلِ مشبكي الذي كان على شكل الضفدع كيرمت، مُضافةً إليه مئة وخمسون بيزو.

ولو أمضيتُ الساعات الأخيرة برفقة «س»، أضفتُ إلى قائمته -التي كانت تضمّ زردية من كرامپ- خمسين بيزو، والمشبك الذي أحذفه من قائمة «د»، كما أحذف منها الخمسين بيزو أيضًا.

أعددتُ قائمةً باسم أمي، وأخرى باسم المُصوِّر، وغيرهما.

كانت مشاعري خفيفة هوائية. وإن لم يصنع ذلك أدنى فارق عندي، وأنا التي انشغلتُ في واقع الأمر بالجهد المبذول في كتابةِ وصيتي، ثم حذفها، ثم كتابتها مرة أخرى كل ليلة. ولذا سألتُ «د» متى يحين المستقبل، حتى أوفِّر على نفسي بعض الجهد.

- «صباح الغد»، أجابني.

رأيتُه في غاية الثقة بما يقول، عند ذاك اغتنمتُ الفرصة حتى أسأله ما المستقبل على وجه التحديد، فما كان منه إلَّا أن كرَّر الإجابة نفسها:

- «صباح الغد».

٢٦

كانت أمي تسمح لي بالسفر أسبوعًا كاملًا برفقة «د» خلال الإجازات، ما أتاح لي مرافقته دون الحاجة إلى دفتر أولياء الأمور الزائف أو غير ذلك من الأكاذيب التي كنتُ أسوقها بشأن يومي.

(- «هل تعلَّمتِ أشياء كثيرة في المدرسة؟»

- «تعلَّمتُ أشياء كثيرة يا ماما»).

كنتُ أترقَّب ذلك الأسبوع كما يترَّقب الأطفال الذين أعرفهم أعيادَ الميلاد؛ لأنني أتمكَّن في تلك الأثناء من النزول بالفندق شأن الباعة الكبار.

كنتُ أشارك «د» في الحجرة. ولذلك جانبان. أولهما إيجابي: إمكانية الإنصات إلى الراديو ما شئتُ ذلك. وثانيهما سلبي: ضرورة لفّ رأسي بوشاحٍ لئلَّا يصلني صوت الغطيط الذي يطلقه «د». وإن كانت فعالية هذه الطَّريقة نسبيةً، بالنظر إلى صغر رأسي وطول الوشاح.

في صباح اليوم التالي تحدَّثتُ إلى مديرة الفندق عن مشكلتي، فقالت لي أن أتخيَّل نفسي في الغابة، وأتخيَّل أن الراقدَ في الفراش المقابل لفراشي يغدو دبًّا صغيرًا،

وليس «د»، بدءًا من ساعة بعينها. وبذلك لا أنتبه إلى ما يجري، فأستغرق في النوم.

«بل إنه دبٌّ كبير»، صوَّبتُ لها ما قالت.

ومن ذلك الوقت فصاعدًا، تضاعفَت إنتاجية الإجازة. صرنا نخرج لبيع منتجات كرامپ مُبكِّرًا، وفي بعض الأمسيات أرافق «س»، وفي الليل أخوض أدغال حجرتي للعناية بالدبّ.

سار كل شيء على خير ما يُرام حتى كان المساء الذي تساقطَت فيه الأمطار.

- «انهمرَت الأمطار بغزارة شديدة»، هكذا قال «س» في وقت لاحق.

وعلى الرغم من تساقط الأمطار، فلقد زرنا عميلًا، ثم آخر، ثم آخر، كما تفعل الأسماك العنيدة.

أبيتُ أن أخلع القبعة المُبلَّلة (علمًا مني أن قوة الشخصية التي أتقمَّصها، ابنة شقيقة «س» المريضة، تكمن في القبعة).

وحين عدتُ، لم أرغب في تناول العشاء. حلمتُ بشجرة تزهر صواميل وعيونًا سحرية وأزهارًا من

الزجاج. وفي الحلم فكَّرتُ أن حديقةً كهذه لن تحتمل قدوم الشتاء، فالتقطتُ منشارًا كنتُ أحمله في جيبي، وقطعتُ جزءًا من جذر الشجرة. ما كاد الجذر ينفصل حتى صار حبلًا شددتُ به معصمي.

في اليوم التالي أفقتُ مصابةً بالحمى، وقد بلغَت درجة حرارتي أربعين درجة مئوية. رحتُ أنادي أمي، وأخلط بين «د» وبين دبٍّ حقيقي.

نزل «د» مذعورًا كي يحضر لي أقراص الأسبرين والشاي بالليمون. كما بلَّل أحد مناديله البيضاء بالماء البارد ووضعه على جبيني.

غفوتُ طوال النهار. وعلى ذلك الخطّ الضبابي الذي يصل بين الحلم والواقع، رأيتُ «د» رائحًا غاديًا، من الحجرة إلى الحمام، ومن الحمام إلى الحجرة، حتى يبرِّد المنديل.

- «إن هذه الطَّريقة لا تخيب»، مضى يقول مُتوتِّرًا وهو يضع المنديل على جبيني من جديد.

وحين نزل إلى قاعة الطعام، أخبر الباقين بشأن الحمّى التي أصابتني. كان أشدّهم أسفًا «س» الذي

مضى يكرِّر الشيء نفسه كلَّما تذكَّر القبعة المُبلَّلة مساء اليوم السابق:

- «انهمرَت الأمطار بغزارة شديدة. ولكنها أبَت أن تخلع القبعة اللعينة».

لم أتناول على الغداء سوى حساء الدجاج الذي حملَته إلى حجرتي مالكة الفندق مرفقًا بفنجان ثانٍ من الشاي بالليمون ومجلة قصص مصورة لم أقرأها، وإن احتفظتُ بها تحت وسادتي.

حين أقبل المساء، شعرتُ بأنني أحسن حالًا. وعلى الرغم من ذلك، فلقد استعار «د» التلفزيون الوحيد في الفندق، بالاستئذان من الجميع، وشاهدنا فيلمًا مكسيكيًّا؛ لأنني كنتُ عاجزةً عن القيام من الفراش.

لا أدري إن فعلتُ ذلك مدفوعةً بالآثار القليلة المُتبقِّية من الحمّى، ولكن شيئًا جعلني أسأله:

- «هل أبيعُ منتجات كرامپ إلى الأبد».

- «الأبد يومٌ طويل الأمد»، أجاب «د».

ولَمَّا جاء وقع العبارة حسنًا، دوَّنها على منديل وهو يخبرني بشيء عن أحد منتجات كرامپ الجديدة:

كشَّاف مقاوم للماء بضمان مدى الحياة لإضاءة «أحلك الظلمات».

ما هي إلَّا خمس دقائق حتى طرق أحدهم الباب. كان الطارق «س»، الذي دخل إلى الحجرة وأشعل سيجارة، ثم أخرج من جيبه دمية سوداء.

– «إنها إفريقية، فلا تجعليها تحسّ بالبرد»، قال.

بعد ذلك أخرج قارورة الويسكي من جيبه الآخر، وقدَّمها إلى «د» على سبيل الهدية. لا أدري إن بدرَت منه تلك اللفتة بدافع التضامن الأبوي أم كانت شعورًا بالذنب. لأن «س» كان شديد التمسُّك بالكاثوليكية، مع أنه سليط اللسان.

عندما حان موعد العشاء، كنتُ قد تعافيتُ تقريبًا. ولكن الباعة المقيمين بالفندق لا طالبوا باستعادة التلفزيون ولا سكروا، آخذين في الحسبان اليوم السيئ الذي مررتُ به. بل إنهم ذهبوا إلى الفراش سيرًا على أطراف الأقدام، كما تفعل الدببة الطيبة.

٢٧

تعافيتُ من الزكام -أو التهاب الرئة- الذي أُصِبتُ به. ولكني لم أكُن في أفضل مظهر. بل إنني بدوتُ أشدَّ نحافةً. في تلك الأيام استقرَّ تحت عينَيَّ ظلَّان كلاهما على شكل هلال، الظلَّان اللذان لن يهجراني منذ ذلك الحين.

راودني حلمٌ مُتكرِّر: رأيتُنا فيه على الطَّريق، ورأيتُ مصابيح سيارات الباعة الرينوليتا تسلط أضواءها بوتيرة مُتغيِّرة. بينما اقتضَت مهمتي أن أكشف المعنى الذي تنطوي عليه تلك الإشارات. لو انطلق الضوء مرتَيْن: أيعني ذلك إمكانية المضي قدمًا؟ ولو انطلق مرة واحدة: أيعني ذلك توصيةً بالتزام الحذر؟ ولو انطلق ثلاث مرات: أيعني ذلك أمرًا بالتوقُّف؟ ولكني لم أفلح في كشف المعنى، مهما فكَّرتُ ودوَّنتُ في دفتري. كنتُ أفيق من الحلم مغمومة، وأجد مشقّة في العودة إلى النوم.

عدتُ إلى المدرسة، واستمررتُ في مرافقة «د» الذي قرَّر ألا أعمل ورديتَيْن منذ ذلك الحين، آخذًا في الحسبان علامات النقاهة التي ما زلتُ محتفظةً بها. رحَّب «س»

بفضّ شراكتنا من دون أن يبدي اعتراضًا، وقد استحوذ عليه شعورٌ بتأنيب الضمير.

أخبرني «د» بذلك، فلم أحزن، وإنما شعرتُ بخواء. خواء على شكل ظرف نقود.

أتقع اللائمة في كل ما حدث بعد ذلك على «د»؟ ما زال في نفسي شيءٌ يأبى الإجابة عن ذلك السؤال.

ولكني أفضِّل أن ألقي باللائمة على «إ».

٢٨

كان «إ» شخصًا ثانويًّا في حياتنا. وكنا شخوصًا ثانوية في قصة أكبر. وعلى الرغم من إمكانية التقاء عناصر عدة في الطَّريق، ثم افتراقها كلٌّ في سبيله، فلقد اصطدمَت تلك العناصر وجهًا لوجه (الأشباح والثقة بالنجَّار الأعظم وعملي المُبكِّر والحقبة التي عشناها آنذاك).

جرَت الأمور على النحو التالي:

التزمنا بمواعيد عمل صارمة، إذ اقتضَت الضرورة أن نكون تحت سقف ما في التاسعة مساء، ويُستحسَن أن يكون سقف بيتنا.

يومذاك عدنا في السادسة مساء. ثم رن جرس الهاتف. كان المُتَّصل «إ» الذي قال إنه في حاجة إلى أن يذهب إليه «د» حتى يقلّه بالسَّيَّارة، وأن أذهب برفقته. كان «إ» قد عثر على الأشباح، والتقط صورها، وفي تلك المرة صارت عودته إلى المدينة من دون أن يثير الشبهات أهم من أي وقت مضى.

أما الحجة الأساسية -التي انتبهنا إليها جميعًا، وإن لم يفصح عنها أحد- فكانت قريبة من تلك التي سبق أن استخدمها «س» الذي أستعين بلغته في ما يلي: شتَّان بين إلقاء القبض على وغدٍ واحد، وبين إلقاء القبض على وغدَيْن معهما طفلة جالسة على المقعد الخلفي.

كانت مبادئ الشرف التي يتبعها «د» تتَّسع لتشمل أشخاصًا من خارج عائلة الباعة، في حالات استثنائية. وهكذا قرَّر «د» أن نمدّ إليه يد المساعدة، مغتنمين فرصة غياب أمي عن البيت، مع الأخذ في الحسبان أن «إ» يسمح له بالدخول إلى السينما مجانًا كما يحلو له. كانت السَّاعة تشير إلى السابعة، والبلدة تقع على بُعد ساعة واحدة. في تمام التاسعة نكون قد عدنا.

وددتُ لو أتذكَّر أننا قد تحدَّثنا عن أشياء مهمة خلال الرحلة على الطَّريق، ولكن لا.

وصلنا، فوجدنا «إ» في انتظارنا.

ألقيتُ عليه التحية، وسألتُه إن كان قد عثر على الأشباح، فلم يقُل لي شيئًا، وإنما اكتفى بأن ضمّ يدي للحظة.

نظر «د» إلى ساعته، واقترح عليه أن يستلقي على المقعد الخلفي، بينما جلستُ أنا على المقعد المجاور للسائق مرةً أخرى.

كنا على وشك أن نغادر البلدة، وإذا بسيارة تعترض طريقنا، وينزل منها رجلان.

لم نُضطَرّ إلى إخفاء حضور «إ»؛ لأنه كان شيئًا مستحيلًا. كما لم يسعفني الوقت لأستعين بإحدى حيلي الدرامية؛ لأن خبرتي القليلة كانت كافية لأدرك أننا وسط دراما حقيقية في تلك المرة.

أما الإيمان بموهبتنا -وبنظرية الرحمة- فكان ليغدو ضربًا من السذاجة. وجدتُ أن البقاء ساكنةً في مقعدي أفضل ما يمكن عمله، وهكذا فعلت.

ترجَّل «د» و«إ» عن السَّيَّارة ومضيا مبتعدَيْن برفقة الرجلَيْن.

مرَّت الدقائق ولم يعودا، فنزلتُ من الرينوليتا، ورجعتُ إلى الساحة.

تراءَت البلدةُ كالصحراء، فجلستُ تحت شجرة -شجرة توت- وأخرجتُ سيجارةً من حافظتي.

تصاعدَت حلقات الدخان. وبينما كنتُ أراقب الدخان يتلاشى، عشتُ حالة التجلِّي الثانية في حياتي، فخُيِّل إليَّ أنني أنكمش وأتصاعد وأنا مُتعلِّقة بإحدى حلقاتي. وفي تلك المساحة الليلية المُميَّزة رحتُ أراقب كيف تستجمع النجوم الحرارة، ثم تظهر، بوم! تمرّ آلاف الأعوام، وتستهلك النجومُ مخزونها الأخير من الهيدروجين، ثم تتلاشى، بوم! امتزج مشهد النجوم بمشهد المسامير التي لم تهرب من دورة التلاشي، مع أنها مصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ (بوم! بوم! بوم! بوم! بوم!).

رأيتُ مشهدًا مُميَّزًا للأشياء وأنا مُتعلِّقة بحلقتي.

وبينما كنتُ في تلك الحالة من صفاء الذهن، سمعتُ صوتًا أجش يصيح:

- «دعنا نرى إن كنتَ سوف تستمرّ في التنقيب عن عظام الموتى في الجحيم أيها الكلب اللعين!».

٢٩

أما الرصاصات التي دوَّت بعد ثوانٍ، فلقد صنعَت ثقبًا، ثقبَيْن، ثلاثة، أربعة، خمسة ثقوب.

وعَبْر واحد من تلك الثقوب، مرَّت «حشرة الحظّ»[١].

٣٠

في اليوم التالي عُثِر عليَّ فاقدة الوعي تحت شجرة الساحة، وقد ظهرَت عليَّ أولى أعراض انخفاض الحرارة. مضى بي النَّاس إلى متجر، وسقوني شيئًا -يُخيَّل

---

(١) «حشرات الحظّ»: ليسَت نوعًا بعينه. بل إنها حشرات تجثم تحديدًا في ذلك الموقع حيث تأخذ الحياة مسارًا مختلفًا. في تلك المساحة من الزمن التي يقرِّر المرء خلالها أن يسلك هذه الطريق أو تلك الطريق، أن يخرج من البيت أو لا يخرج، أن يقول شيئًا أو لا يقول. إنه جزء من الثانية متناهي الصغر، حتى إنه لا يسمح إلَّا بمرور حشرة. حشرة تمرّ، فتقسم الحياة إلى قسمَيْن دائمًا. (المُؤلِّفة)

إليَّ أنه كحول- أفاقني بالقدر الكافي لأخبرهم برقم هاتف بيتي واسم والدتي.

الاتصال والحديث الذي تلاه

تلقَّت أمي الاتصال، فإذا بالقطعة التي ظلَّت ناقصةً أعوامًا طوالًا تعود إليها فجأةً. ولكنها لم تدرِ أن تلك القطعة قد عادت إليها بعد يومٍ واحد من عثور «إ» على ذلك الشبح مدفونًا وسط الآخرين، ذلك الشبح الذي أبقى أمي في سباتٍ أمدًا طويلًا.

اكتشفتُ ما جرى بعد أعوام، حين عثرتُ، وأنا أفتِّش في إحدى حقائب الظهر، على صندوق يضمّ صورًا فوتوغرافية وقصاصات من الصحف اليومية تتحدَّث عن العثور على بعض الجثث.

البلدات كلها متشابهة، ولكني لم أُضطَرّ إلى بذل جهد كبير حتى أعرف أن البلدة التي تظهر في الصور هي تلك التي دوَّت فيها الرصاصات.

هل أجرى «إ» اتصالات أخرى؟ هل أرسل إشارة بالدخان قائلًا: وجدتُهم.

لن أعرف أبدًا، ولكن لا يهمّ.

أما الشيء الذي كان يهمّ حقًّا، فهو التحقيق الذي أعقب ذلك.

لأنني قد تحدَّثتُ إلى أمي عن البلدة الشبح، وعن اتصال «إ»، وعن الرصاصات.

كما حدَّثتُها عن «س»، وعن الظروف. عن دفتر أولياء الأمور الزائف. عن متاجر الأدوات، ومتاجر العطور، وشبيه «س» الصغير، والتغيُّب عن المدرسة، وأخيرًا حدَّثتُها عن النجَّار الأعظم.

لا أدري السبب الذي جعلني أجهش بالبكاء وأنا أحكي قصتي. ولمَّا كنتُ على تلك الحال، فلقد استغرقتُ في البكاء طوال ساعات. راحت أمي تعانقني وتقول لي: إن كل شيء سوف يكون على ما يُرام، بصوت لم أعرفه من قبل.

وفي الوقت نفسه أُجرِي تحقيقٌ آخر. ذلك الذي خضع له «د».

لن أعرف أبدًا في أي أمور تكلَّم «د» هناك. عرفَت أمي أنه سوف يعود؛ لأنه يملك من الحذق ما يسمح له

بإقناع المُحقِّقين، ويملك من الجبن ما يمنعه من المجازفة بأن يدخل التاريخ بطلًا شبحًا. سوف ينجو. عسى أن يذهب إلى الجحيم.

٣١

رجع «د» إلى البيت بلحية عمرها ثلاثة أيام وقد انتشرَت الرضوض في جسده، ونقص وزنه كيلوغرامات، بينما كنتُ أنا وأمي قد رحلنا إلى ما أطلقتُ عليه «الحياة التالية».

قبل أن تذهب أمي، تركَت على الطاولة رسالةً كتبَت فيها كلمتَيْن، إحداهما تعلَّمَتها من جدّتي، والأخرى من محصلتها اللغوية الخاصة: «غافل لعين».

وجوار الرسالة بالتحديد، تركتُ أنا ظرفًا يضمّ المال الذي ادَّخرتُه طوال المدة التي قدَّمتُ خلالها خدماتي مدفوعة الأجر، مرفقةً برسالة أقول فيها:

«أحبّك.

ملحوظة: هذا المال قرض».

٣٢

سافرنا طوال الليل على متن الحافلة التي حملَتني أنا وأمي بعيدًا بالقدر الكافي.

بعيدًا عن «د».

بعيدًا عن منتجات كرامپ.

بعيدًا عن الأشباح.

أما قائمة الأشياء التي ابتعدنا عنها، فلقد تركَت في نفسي أثرًا غائرًا. إلى الحدّ الذي جعلني أحاول إنهاء حياتي بالانقطاع عن التنفُّس مرتَيْن. ولكني أخفقت، فأدركتُ في التاسعة من العمر أن غريزةَ النجاة شيءٌ أسمى.

بهاتين الكلمتَيْن أوضحتُ الأمر لاثنين من زملاء الدراسة الجدد: «شيء أسمى». ثم حرَّضتُهما على محو الذات، وقلت لهما: إن كل ما يجب عليهما فعله: التركيز والانقطاع عن التنفُّس.

لم أرِد لهما أن يفارقا الحياة، كل ما في الأمر أنني أردتُ التأكُّد أنها لم تكُن إرادتي هي التي أخفقَت (فالانقطاع

عن التنفُّس لا يقتضي أكثر من الإرادة)، بل إن إرادة الجنس البشري كاملًا قد أخفقَت. وتأكَّدتُ من ذلك، لأن كليهما قد نجا بحياته، كما نجوتُ أنا أيضًا.

تلقَّت أمي اتصالًا من المدرسة، حيث طلبَت من المُعلِّمة، في حضوري، أن تتفضَّل بالتماس العذر لي؛ لأنني أمرّ بظروف عصيبة جرَّاء التفكُّك الأسري.

كنتُ أستطيع أن أوضح لأمي ومُعلِّمتي الجديدة أن ذلك التفكُّك الأسري قد أُضيفَت إليه صنوفٌ أخرى من التفكُّك: وبذلك أعني التفكُّك الروحي (لأنني صرتُ أتحدَّث إلى النجَّار الأعظم من المدينة الجديدة، فلا يسمعني)، والتفكُّك الاقتصادي (لأن المقايضات وظروف النقود لم تعُد متوافرة)، والتفكُّك المهني (لأن المدينة الجديدة قد خلَت من البائعين تمامًا، وأنا مساعدة بائع مسافر).

هل كانت أمي والمعلمة لتتفهَّمان؟

كلا، على الأرجح. ولذا لم أقُل لهما شيئًا.

قرَّرتُ أن أترك الحياة تمضي في طريقها، ولقد مضَت بمنتهى العفوية، حتى صار لي أبٌ جديد في

العام التالي، وسرعان ما صارت لي أختٌ، بل إننا اشترينا كلبًا أيضًا.

فلاكو، هكذا أطلقنا على الكلب.

٣٣

كنتُ أذهب إلى المدرسة، وألعب مع أختي، وأتنزَّه مع فلاكو، بل إنني وجدتُ من الوقت مُتَّسعًا حتى أتَّخذ لنفسي أصدقاء جددًا.

صحيح أن نظرتي كانت تتعلَّق بإحدى العيون السحرية أو قوارير الكولونيا الرخيصة في بعض الأحيان، فأشعر بتوجُّس طفيف، ولكني سمحتُ لتلك الخواطر بأن تمرّ، كما يفعل الرهبان البوذيون (على حدِّ قول صديقة أمي التي كانت جديدة أيضًا).

كان «د» يتَّصل بي مرتَيْن كل عام.

- «كيف حالكِ يا «م»؟»

- «بخير».

- «ما رأيكِ في المدينة الجديدة؟»

- «بشعة».

- «لم أتمكَّن من الاتصال بك، هل رأيتِ خبر سارق الهواتف؟»

- «كلا».

- «لم يترك هاتفًا واحدًا، ولذلك أمضينا شهورًا عاجزين عن الاتصال».

- (صمت).

- «سأحاول زيارتكِ ذات يوم. المبيعات لا تسير على ما يرام. فقد النَّاس صواميل عقولهم، حتى امتلأت الأرض بالصواميل، ولم تعُد متاجر الأدوات في حاجة إلى شراء المزيد منها».

- (ضحك).

- «اعتنِ بنفسكِ يا «م»».

- «وأنت أيضًا، وداعًا».

لم يحدث يومًا أن قال أحدُنا للآخر: «أفتقدك»، أو تكلَّم عمَّا جرى.

هكذا أفضل.

٣٤

مرَّت الأعوام التالية بالتصوير البطيء، وتشابهَت إلى الحدّ الذي يسمح بتكثيفها في يومٍ واحد. كنتُ أشتري تقويمًا في مطلع كل عام حتى أتوصَّل إلى ما يشبه الإحساس بمُضي الزمن، ثم أعلِّق التقويم بالجدار، وأشطب الأيام، وأخيرًا أحتفظُ بالتقويم في صندوق تحت فراشي بعد أن تمرّ الأيام.

كما احتفظتُ في ذلك الصندوق بالصورة التي التقطها لي «إ»، وبدفتر المبيعات أيضًا.

في ذلك الصندوق احتفظتُ بآلية الزمن.

عام.

عامان.

ثلاثة.

أربعة.

وعام آخر لم أحصل فيه على تقويم، ولكنه يُحسَب أيضًا: وهكذا مرَّت خمسة أعوام.

٣٤

مرَّت الأعوام التالية بالتصوير البطيء، وتشابهَت إلى الحدّ الذي يسمح بتكثيفها في يومٍ واحد. كنتُ أشتري تقويمًا في مطلع كل عام حتى أتوصَّل إلى ما يشبه الإحساس بمُضي الزمن، ثم أعلِّق التقويم بالجدار، وأشطب الأيام، وأخيرًا أحتفظُ بالتقويم في صندوق تحت فراشي بعد أن تمرّ الأيام.

كما احتفظتُ في ذلك الصندوق بالصورة التي التقطها لي «إ»، وبدفتر المبيعات أيضًا.

في ذلك الصندوق احتفظتُ بآلية الزمن.

عام.

عامان.

ثلاثة.

أربعة.

وعام آخر لم أحصل فيه على تقويم، ولكنه يُحسَب أيضًا: وهكذا مرَّت خمسة أعوام.

قرَّرتُ أن تلك المدة كافية، فجلستُ أترقَّب الاتصال التالي.

رن جرس الهاتف والصيف السادس في أوله.

- «كيف حالك يا «م»؟».

- «سوف أزورك».

- (صمت).

- «انتظرني في مقهى محطة القطار، بعد شهر بالتحديد».

- «سأكون هناك».

- «تذكَّر أنك مدين لي بالنقود».

- «أتذكَّر».

على مدى الأعوام الخمسة الأواخر، كنتُ أذهب لتمشية كلب الجار أيضًا، ذلك الأعزب الذي يدفع بسخاء مع الأخذ في الحسبان أنه رجل يعيش حياةً مريرة. لو أضفنا النقود التي جنيتُها إلى المبلغ الذي يدين لي به «د»، لصار الناتج يكفي للإقامة شهرًا في أحد الفنادق.

لم أجد مشكلة واحدة في الحصول على الإذن بالسفر.

صارت أمي تؤمن ببوذا، بتأثير من أبي الجديد. وإن لم يدفعها ذلك إلى التوقُّف عن الإعجاب بالجمهوريات الانفصالية. وهكذا أعارتني أمي حقيبتها واستودعَتني الخواء الأصلي.

حقيبة أمي

أما القطع الناقصة لاستكمال تلك الأحجية التي تمثِّلها أمّي، فكانت هناك، في الحقيبة. الحقيبة التي سبقَت وجودي، وسبقَت ظهور «د». الحقيبة التي احتفظَت أمي فيها بربطة من الرسائل، وثلاثة كتب، ووشاح أزرق مُرقَّط بنقاط بيضاء.

قدَّمها إليها خايمي أندريس سواريس مونكادا.

وبعد أن قدَّمها إليها، اختفى خايمي أندريس سواريس مونكادا عن الأنظار.

عرفَت أمي بأمر اختفائه، فالتقطَت خيطًا، وبدأت تطرِّز نجمةً على حقيبتها، ظنًّا منها بأنها متى فرغَت من تطريز النجمة ظهر خايمي أندريس سواريس مونكادا على باب البيت وقبَّلها. ولكن ذلك لم يحدث.

مضَت أمي تبحث عن خايمي أندريس سواريس مونكادا على مدى الأعوام التالية. غير أنها لم تجد إلَّا قوائم أسماء.

احتفظَت بالأسماء في جيب الحقيبة.

ثقُلَت الحقيبة، وأصرَّت أمي على حملها، فكانت قامتها تنوء بالحمل أكثر فأكثر كل يوم.

إن عالَم الأشباح في منتهى الصغر، كعالَم البشر.

أما رفات خايمي أندريس سواريس مونكادا، فلقد عثر عليها «إ» بعد أعوام، عثر عليها المُصوِّر الفوتوغرافي الذي كان أعزّ أصدقائه.

نُشِر الخبر في صحيفة يبدو أنها تصدر في بلدٍ آخر، صحيفة أرسلها إلى أمي أحدهم في ظرفٍ خلا من اسم المُرسِل.

استقرَّت ثلاث عشرة رصاصة في جثمان حبيبها الأول، خايمي أندريس سواريس مونكادا، كما انكسر عددٌ من عظامه أيضًا.

فرغَت أمي من القراءة، فأوصدَت على نفسها باب

الحمَّام ومعها إبرة (الإبرة التي طرَّزَت بها النجمة على الحقيبة)، ودواة من الحبر الأسود.

وخزَت ذراعها ثلاث عشرة وخزة، رغبةً منها في أن تحسَّ بالألم الخارجي بقدر ما أحسَّت بالألم الداخلي. وخزَت نفسها ثلاث عشرة مرة. بقوة، بمنتهى القوة.

ولمَّا سألتُها في وقتٍ لاحق عن تلك النقاط، قالت إنها لا تدري، وإنها قد أفاقت صبيحة ذلك اليوم، فوجدَت كوكبةً من النجوم السوداء على ذراعها اليسرى ببساطة.

أي أشياء تختلق أمي! رحتُ أفكِّر.

أمي التي كانت تبكي مرة أخرى.

٣٥

بعد حديثنا عَبْر الهاتف بشهر واحد على وجه التحديد، كان «د» ينتظرني على رصيف القطار.

بدلًا من العناق، ربَّت كلٌّ منا على ظهر الآخر كما يفعل رفاق الدراسة القدامى.

البدلة نفسها.

الحقيبة نفسها.

وإن لم تعُد السَّيَّارة الرينوليتا هناك.

وهكذا ركبنا الحافلة التي أوصلَتنا إلى بيت «د» الجديد: تلك العلّية الصغيرة المُرتَّبة. تراءَت لي العلّية مثالية، حتى إنها جعلَتني أفكِّر في ساعةٍ، ساعة تدور بطريقة غير منتظمة. هناك، وبينما راح «د» يحضِّر قهوة الترحاب من أجلي، بدا لي إنسانًا تركه الزمنُ عالقًا بين ما يشبه الأقواس.

إنه لشعور رائع أن يحتال المرء على الزمن، حتى إنني، عندما انتصف النهار، كنتُ قد أودعتُ بعضًا من أشيائي فوق مكتبه، ورحتُ أقيس الأريكة لأرى إن كان بها مُتَّسع لجسدي، جسد الفتاة ذات الأربعة عشر عامًا.

- «أسبوع واحد فحسب»، قال «د».

- «أملك من النقود ما يكفي لشهرٍ كامل، ويبدو لي أنني لو نمتُ على الأريكة، لتمكَّنتُ من توفير نفقات الفندق».

- «أسبوعان لا يزيدان يومًا واحدًا».

- «سأنام أنا في الفراش إذن، وأنت على الأريكة».

في الأيام التالية حاولنا استئناف الروتين الذي قد ألفناه قبل أعوام.

لم نعُد نملك السَّيَّارة الرينوليتا، ما جعلنا نسافر بالحافلة والقطار. في واحدة من تلك المحطات، آنستُ فينا شيئًا غريبًا عندما نظرتُ إلينا قُرب الآخرين.

بين لحظةٍ وأخرى، تراءى لي الحذاءُ مفرطُ اللمعان حيلةً لمداراة القميص المهترئ، بعد أن كان ذلك الحذاء في الماضي رمزًا من رموز الإيمان (بإمكانية الوصول إلى القمر). الأمر نفسه يسري على قميصي الذي انتقيتُه بنفسي من أجل تلك المناسبة والوشاح الذي لففتُ به عنقي.

كان هناك احتمالان:

أ. إما أن فقر الحال قد رافقنا منذ الأزل، ولم أنتبه أنا إلى ذلك.

ب. وإما أن شيئًا قد تبدَّل.

مهما يكُن من شيء، فإن ذكرى طفولتي قد شهدَت انكسارًا: «كراك». وإذا بي أكره النجَّار الأعظم. لم أكرهه بسبب الواقع، بل جرَّاء ذلك الكشف الذي أحاطني بخجل مقيت لم أعرفه حتى ذلك الوقت: نظرات الآخرين. هل كانوا يعرفون؟ هل انتبهوا إلى فقر حالنا؟ رأيتُهم بصفاء لأول مرة، فوجدتُهم عمالقة.

وبينما رحتُ أفكِّر في ذلك التباين الذي لم يكُن في صالحي، بعد أعوام من الواقع الباعث على الضجر، تجلَّت لي رؤيا أخرى: وفي تلك الرؤيا خُيِّل إليَّ أننا نتلاشى، أنا و«د»، بينما كان النَّاس يترقَّبون على رصيف القطار، ويودِّعون بعضهم بعضًا، أو يبحثون عن عربتهم. بقيتُ أنا و«د» ساكنَيْن. بدأنا نفقد الألوان أولًا، ثم الهيئة. وإذا نحن نغدو حلقتَيْن من الدخان تقطعان سماء المدينة، وتتلاشيان. ظلَّت حقيبتي وحقيبة «د» هناك، مهجورتَيْن على رصيف القطار. ومرَّت الأعوام. مئات الأعوام. كان الموقع هو نفسه، ولكن المشهد قد تبدَّل، فهناك حيث كانت المحطةُ والمدينة، ترامَت الآن صحراء مأهولةٌ بالحاويات. ظلَّت أغراضنا هناك، في حين مضى ساكنو المكان يودعون

أكاليل من الورق جوارها. كنَّا قد وُجِدنا منذ أمدٍ بعيد، ولم يكُن التلاشي ينطوي على أدنى قدرٍ من الألم، بعكس ما قد خُيِّل إليَّ. ها أنت ذا تغدو دخانًا. وأما البقايا، فتصنع بها أجيالُ المستقبل ما في وسعها.

في تلك الرؤيا أدركتُ واحدة من آليات الوجود. وكنتُ لأذهب أبعد من ذلك، لولا أن «د» قد نبَّهني إلى وصول قطارنا.

استغرقنا ساعتَيْن في الوصول إلى وجهتنا.

مررنا بالمقهى أولًا. لم يحضر بائع مسافر واحد لمرافقتنا، فعجَّلنا بالذهاب إلى متجر الأدوات الرئيسي.

تكرَّرَت تلك العزلةُ الجديدة على مدى الأيام التالية، وجعلَت صورةَ الصحراء تعود وتجثم داخل فناجين القهوة التي أطلبها، فرحتُ أقلِّبها وأمحوها بالملعقة.

٣٦

مضينا قدمًا: كنا نذهب إلى بلدة واحدة كل يوم. ولكن شيئًا في المشهد الذي رحنا نقطعه سيرًا على الأقدام لم يوافق صورة الواقع التي احتفظتُ بها في رأسي.

في البدء كنتُ أدخل مع «د» إلى متاجر الأدوات، ولكن جسدي بات أكبر من أن تتَّسع له مساحة الشخصية التي تقمَّصها قديمًا. وإذا بالسنتيمترات التي اكتسبَتها ذراعاي وساقاي في الأعوام الأواخر تجعلني كائنًا خفيًّا لا تراه أعين مسؤولي المتاجر.

ومرة أخرى، لعنتُ النجَّار الأعظم. ما دام قادرًا على أن يُبقِي البشرَ الأقزام صغارًا، ويُبقِي الخيولَ القزمة صغيرةً، فهو قادر على أن يُبقِيني صغيرةً أنا الأخرى. غير أنه لم يفعل. وبذلك القرار سلبني خطتي.

صار عليَّ أن أتأمَّل. وقرَّرتُ أن أنتظر «د» في تلك الأنحاء، بدلًا من مرافقته.

طلبتُ منه أن يترك لي دليل منتجات كرامپ للاطّلاع على المستجدات، فأجابني بأنهم قد توقَّفوا عن طباعته، وبأنه صار يبيع المنتجات القليلة التي يبيعها من الذاكرة. هكذا قال.

أدركتُ أن الوضع أشدّ حرجًا مما قد خُيِّل إليّ، فقرَّرتُ أنه من الأفضل إنهاء الرحلة، ما لم أرِد أن تتلاشى الأرض تحت قدمَي.

كانت في رأسي ذكريات ما زالت لم تمتزج بالواقع الجديد، فأردتُ أن أنقذها. ألقيتُ على «د» تحية الوداع، وأضفتُ إلى الربتات عناقًا وقُبلةً.

تبقَّى لي أسبوع واحد، وشيء من النقود، فقرَّرتُ الاتصال بـ«س».

٣٧

حضر للقائي في المقهى حيث أخبرتُه بأنني سوف أكون في انتظاره، فأطلق آلة التنبيه وهو لا يزال على بُعد مربع سكني كامل. كانت سعادتي برؤيته مرةً أخرى جارفة إلى الحدّ الذي جعلني أنطلق راكضةً، من دون أن أدفع حتى ثمن القهوة التي احتسيتُها وأنا في انتظاره.

- «كم كبرت! لم تعُد لكِ أدنى فائدة، ولكن ما أعظم سعادتي برؤيتكِ مرة أخرى!».

عانقني بقوة، فبلغَتني رائحة الكحول الممزوج بالكولونيا البخسة، تلك الرائحة التي لا يخطئها المرء، والتي احتفظتُ بها بين الذكريات المُحبَّبة إلى نفسي أمدًا طويلًا.

- «عرفتُ أنكِ أمضيتِ الأعوام الأخيرة تتضوَّرين جوعًا، فأحضرتُ لكِ خبزًا بالجبن. أعددتُه بنفسي».

كان لا يزال في وسعي أن أميِّز الأطعمة التي تُباع على الطَّريق. تأكَّد لي أن «س» ما زال كاذبًا كعهده، وأن الخبز يابس كما أذكره، فاستعدتُ شيئًا من الأرض المفقودة.

واحتفالًا بلقائنا مرة أخرى، فتح صندوق السَّيَّارة: حيث كانت القارورة الصغيرة التي طالما احتفظ بها مليئة بالمشروبات الروحية.

قدَّم إليَّ رشفة، فقبلتُ مُمتنَّة. ألهب الويسكي حلقي، مع أنه كان شهيًّا. وبينما أنا أردّ القارورة إلى الصندوق، رأيتُ المسدس. لم أكُن قد أمسكتُ مسدسًا بيدي، فالتقطتُه بحذر.

- «بوم!»، صاح «س».

وددتُ أن أصيح أنا أيضًا: «لا تكُن أحمق، فالمرء لا يمزح بسلاح مُعبَّأ بالذخيرة». ولكني ما زلتُ أشعر نحو «س» بما يشبه الاحترام، بالرغم من مضي الأعوام.

- «لماذا تحتفظ بهذا الشيء هنا؟»

- «عرفتُ أنكِ أمضيتِ الأعوام الأخيرة تتضوَّرين جوعًا، فأحضرتُ لكِ خبزًا بالجبن. أعددتُه بنفسي».

كان لا يزال في وسعي أن أميِّز الأطعمة التي تُباع على الطَّريق. تأكَّد لي أن «س» ما زال كاذبًا كعهده، وأن الخبز يابس كما أذكره، فاستعدتُ شيئًا من الأرض المفقودة.

واحتفالًا بلقائنا مرة أخرى، فتح صندوق السَّيَّارة: حيث كانت القارورة الصغيرة التي طالما احتفظ بها مليئة بالمشروبات الروحية.

قدَّم إليَّ رشفة، فقبلتُ مُمتنَّة. ألهب الويسكي حلقي، مع أنه كان شهيًّا. وبينما أنا أردّ القارورة إلى الصندوق، رأيتُ المسدس. لم أكُن قد أمسكتُ مسدسًا بيدي، فالتقطتُه بحذر.

- «بوم!»، صاح «س».

وددتُ أن أصيح أنا أيضًا: «لا تكُن أحمق، فالمرء لا يمزح بسلاح مُعبَّأ بالذخيرة». ولكني ما زلتُ أشعر نحو «س» بما يشبه الاحترام، بالرغم من مضي الأعوام.

- «لماذا تحتفظ بهذا الشيء هنا؟»

- «حتى أقتل نفسي».

- «أنا جادة في ما أقول».

- «وأنا أيضًا. اتركيه هناك. أريد أن أكون أنا مَن يقرِّر اللحظة».

أوضح لي أن العمل في غاية السوء، فأبناء العاهرات أصحاب سلاسل المتاجر الكبرى، أولئك الأوغاد يلتهمون المتاجر الصغرى والمتوسطة. وأنهم متى فرغوا من ابتلاع متاجر الأدوات والعطور والثياب، والصيدليات أيضًا، لم يعُد أحدٌ في حاجة إلى الباعة المسافرين.

من أجل هذا قرَّر الباعة شراء شحنة من المسدسات. قدَّم إليهم صاحب متجر الأسلحة -الشرطي السابق- عرضًا سخيًّا؛ لأنهم قد اشتروا الشحنة كاملة. وهكذا يطلق جميع الباعة المسافرين النيران في آن واحد، يومَ يغلق المتجر الأخير أبوابه.

- «هل يملك «د» مسدسًا أيضًا؟»

- «كلٌّ منا يملك واحدًا».

كنتُ أستطيع أن أنعته بالجنون. وأن أنعتهم كلهم بالجنون. ولكني قلتُ له:

- «أتفهَّم».

على مدى الأيام التالية مضينا جنوبًا، حيث كنا ننزل في فنادق تخلو من أدنى أثر للراحة، سيَّانِ النوم فيها والنوم في العراء.

وبالأخذ في الحسبان ندرة الموارد التي ضيَّقَت علينا الخناق من كل الجهات (أو بالأحرى بفضل تلك الندرة)، أفلحنا في تقديم نسخة رديئة من أفعال الماضي. كنتُ أبقى ساكنةً داخل السَّيَّارة، بينما يوضح «س» لأصحاب متاجر العطور أن ذلك الخيال الذي يرون عن بُعْد لابنةِ شقيقته المقعدة التي وضع مسؤوليتها على عاتقه.

- «أتذكرين التركي؟» سألني حين مررنا أمام متجر التركي.

- «الرجل الذي يستغرق ثلاثة أيام في إتمام صفقة الشراء».

- «هو نفسه».

- «ماذا جرى له؟»

- «اتَّخذ لنفسه سكرتيرة لا تسمح لنا إلَّا بزيارةٍ مدتها ساعة واحدة. في رأيك، هل يمكن أن يملأ البائع عربةً بالبضائع اللعينة في تلك المدة؟»

- «كلا».

- «لهذا لم نعُد نبيع لذلك التركي المخنث الوغد».

جاءت نهاية الأسبوع، فودَّعتُ «س» بعناق آخر. ومن مكاني في محطة القطار، رأيتُه يبتعد سائرًا حتى صار نقطة، صار كالصورة التي تحتفظ بها في رأسك، ولكنك لا تملك رؤيتها بتركيز وصفاء.

٣٨

عدتُ إلى بيتي وفي نفسي خواء بحجم الحقيبة التي أعارتني أمي إياها. كنتُ في حاجة إلى البحث عن سبب لذلك، فألقيتُ باللائمة على النقود التي لم أحصل عليها. قطعتُ نصف البلد حتى أستردّها، وعدتُ من دونها. كانت خيبة تحجبها خيبة ثانية، ما زلتُ لا أدري ماذا أطلق عليها.

استأنفتُ روتيني: المدرسة، والكلاب، وأمي، وأبي الجديد، وأختي.

الآخرون. خلال أسبوعَيْن صار الآخرون أكبر ببضعة سنتيمترات، وصرتُ أنا أصغر بالقدر نفسه. لم يبدُ عليهم الانتباه إلى ذلك، مع أنني قد انتبهتُ إليه. وفي تلك الدقائق القليلة من الإدراك، كان الحلّ الوحيد يكمن في معانقة أختي أو أمي مُتعلِّلة بأي سبب.

لم أرِد أن أتلاشى، فصرتُ مُضطَرّة إلى التشبُّث بالأرض.

٣٩

مرَّت الشهور، وظلَّت الفجوة هناك، فاتَّخذتُ قراري بأن أسدّ الفجوة بالعمل حتى أكون شخصًا صالحًا. لأن الأشرار، الذين أحببتُهم كثيرًا، ربما كانوا في تلك اللحظة يفجِّرون رؤوسهم. الأمر الذي رأيتُه علامةً واضحة على ضرورة الانضمام إلى جبهة أخرى، ما دمتُ أرغب في النجاة بنفسي.

تحسَّنت درجاتي في المدرسة، كما تحسَّن سلوكي أيضًا، وصرتُ أمضي وقتًا أطول مع أختي، وألقي النكات مع الأسرة على الغداء. شيء مثالي.

كانت الخطوة التالية أن أبني بيتًا من أجل الكلب، فعقدتُ العزم على شراء خامات البناء بنفسي.

أمِن المفيد أن يعرف المرء آلية عمل الأشياء؟ أن يعرف كيف تتحرَّك من الداخل؟

ما زلتُ لا أملك إجابة عن ذلك السؤال. كل ما أعرفه أنني ذهبتُ إلى متجر الأدوات، وطلبت عشرين مسمارًا بطول اثني عشر مليمترًا ومطرقة كرامب، فقال لي البائع: إنهم قد توقَّفوا عن بيع تلك المنتجات منذ أعوام. أقفلَت الشركة فرعها منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، لم يتذكَّر على وجه التحديد.

بدأ يعدِّد أنواعًا أخرى، فسمعتُه كمن يسمع هديرًا آتيًا من بعيد. هدير البحر، كما فكَّرتُ آنذاك. طلبتُ منه أن يبيعني لوحَين من الخشب. ما دمتُ قادرةً على الإحساس بثقلهما، وحملهما، والمضي بهما إلى البيت، فذلك يعني أنني ما زلتُ شخصًا طبيعيًّا.

عدتُ أدراجي سيرًا. أذكر بوضوح أن نسيم المساء ظلّ مُصِرًّا على العبث بخصلة الشعر المنسدلة على الجانب الأيسر من جبيني طوال الطَّريق. سوَّيتُ شعري مرتَيْن، ثم تركتُه للنسيم.

وصلتُ إلى بيتي، فذهبتُ مباشرةً إلى الباحة الخلفية، هناك حيث تركتُ لوحَي الخشب أرضًا وأسندتُهما إلى الجدار، بينما جلستُ أراقب المساحة التي تفصل بين جسدي وبين البيت. كم من النسيم قد مرَّ من هناك؟ منذ كم مليون عام وُجِد ذلك المكان؟

دخلتُ إلى البيت أخيرًا، فقلتُ لأمي: إنني لن أتعشَّى، وذهبتُ إلى حجرتي مباشرةً.

٤٠

منذ شهور وحسب، كنتُ برفقة «د»، أحاول بيع منتجات لم تعُد على قيد الوجود، ما يعني أن «د» قد كذب عليّ.

لم يكُن الشعور الذي راودني غضبًا.

تذكَّرتُه مرات كثيرة جدًّا وهو يقول: إنه من المُستبعَد أن يتهدَّم بيت، في حال ضرب زلزالٌ أو هبّ إعصار، ما دامت مواد البناء المُستخدَمة في بنائه من كرامپ، بنسبة ثمانين في المئة. وعرفتُ أن حالتي واحدة من تلك الحالات التعيسة المستبعدة.

لأن الزلزال قد ضرب، والإعصار العاتي قد هبّ، أما البناء الذي شيَّدتُه بمواد بناء من كرامپ، بنسبة خمسة وتسعين في المئة، فلقد صار الآن كومًا من الأعواد.

لم يكُن الشعور الذي راودني غضبًا، وإنما خواء. ثم بات الخواء فجوة، اتَّسعَت لها الفجوةُ الأخرى التي استقرَّت في نفسي، تلك التي مضيتُ أحملها منذ أن زرتُ «د»، لسبب لم أدرِ له كُنهًا. والآن عرفت.

جلستُ أترقَّب الاتصال التالي. كنتُ أعرف أن «د» مُنظَّم، وأنه سوف ينظر إلى أجندته متى جاء ديسمبر، فيرى ما دوَّن بنفسه في مطلع العام: الاتصال بـ«م».

رن جرس الهاتف في السابعة مساء من أول أيام ديسمبر.

كنتُ أشدّ تعبًا من أن أتحدَّث بكلام أصيل، ولذا كرَّرتُ الحوار السابق مرة أخرى. وقلتُ له: إنني سوف أكون هناك، في المحطة، بعد شهر على وجه التحديد.

أجابني «د»، وقد استحوذ عليه تعبٌ مشابه، قائلًا: إنه سوف يكون في انتظاري.

٤١

وضعتُ ثيابًا قليلة في حقيبة الظهر؛ لأن الوقت صيفٌ، ولأن شيئًا في نفسي قد عرف أن الرحلة سوف تكون قصيرة.

ترجَّلتُ عن القطار، فرأيتُ «د» في المحطة، ولاحظتُ أنه يرتدي ثياب الشتاء على الرغم من القيظ.

مررنا ببيته لتناول القهوة.

كنتُ أودُّ لو سألته عن السبب الذي جعله لا يخبرني بشيءٍ عن اختفاء منتجات كرامپ، وعن المسدس الذي يحتفظ به، وعن المال الذي يدين لي به.

ولكني أشعلتُ سيجارة بدلًا من ذلك، وقلتُ له: إن القهوة ممتازة.

ركبنا الحافلة المُتَّجهة جنوبًا قبل أن ينتصف النهار، وكأن شيئًا يحثّنا على الإسراع، ثم نزلنا في أول بلدة على الطَّريق.

قلتُ لـ«د»: إنني لن أذهب معه إلى متجر الأدوات في تلك المرة، فأنا لم آتِ إلَّا لأكون برفقته. أخبرتُه بأنني سوف أنتظره في الساحة. كنتُ أحمل كتابًا: «رحلات غليفر».

غادر «د» حاملًا حقيبته في محاولة لبيع منتجاته التي لم تعُد على قيد الوجود. بالنظر عن بُعد، حتى المتجر تراءى لي غير حقيقي.

عاد بعد نصف ساعة، وجلس جواري.

- «كيف سارت الأمور؟»

- «بعتُ مئتي عين سحرية، وتقاضيتُ مستحقاتي عن تسعين منشارًا».

ران علينا الصمتُ حينًا. رأيتُ شجرة التوت،

فأدركتُ أننا في الساحة نفسها، هناك حيث غبتُ عن الوعي من فرط الخوف قبل أعوام.

أشعلنا سيجارة، ثم أخرى.

وعلى مدى ساعات، بدَت لي أعوامًا، بقيتُ أنا و«د» جالسَيْن في صمت.

- «احتفظْ به».

- «بماذا؟»

- «بالمال».

ولمَّا انتهيتُ من حديثي، أدركتُ أنني كنتُ أودِّعه.

كان دليل الأدوات قد خلق بيننا رابطًا عميقًا: المسامير، والمطارق، وعيون الأبواب السحرية. ولكن ذلك الدليل لم يعُد على قيد الوجود.

سارت الأشياء وفق آلية لا نملك إيقافها.

رأينا أولى نجمات الليل تتبدَّى.

منذ آلاف الملايين من الأعوام، في تلك الليلة نفسها، وقع الانفجار العظيم. ومنذ ذلك اليوم راحت الأشياء كلها تفترق، وظلَّت تفترق، إلى غير عودة.

كان القمر المتضائل في السَّماء هو نفسه القمر الذي هبط نيل أرمسترونغ على سطحه قبل أعوام. ولكن أشياء أخرى قد تبدَّلَت إلى الأبد.

تركني أبي في المحطة التي قد وصلتُ إليها صبيحة ذلك اليوم. ثم ودَّع بعضنا بعضًا وكلانا يعرف أننا لن نلتقي مرة أخرى.

تحرَّك القطار في موعده بدقة غريبة.

أما أنا، فاتَّكأتُ برأسي على النافذة.

واستغرقتُ في النوم.

«تمَّت»

تخطو الفتاة الصغيرة خطواتها الأولى في الحياة وتتلمَّس طريقها في هذا العالَم. تصنِّف الأشياء والذكريات، وتعيد ترتيب الكَوْن بالنظر إلى محيطها: فترى النجومَ مسامير مضيئةً في السماء، والأرضَ نقطةً تائهةً في قلب الليل. أما في الخلفية، فيلمس القارئ حملَ الديكتاتورية الثقيل الذي ناءت به تشيلي آنذاك، ويسمع المسكوت عنه من الكلام، ويتخيَّل أحداثًا تدور في الخفاء.. يجري كل ذلك مُغلَّفًا ببراءة الطفولة وشقاوة الصبا.

نوڤيلا رقيقة مرسومة بخطوطٍ مرهفة، تُظهِر بقدر ما تخفي وتكشف بقدر ما تكتم، بقلم الكاتبة التشيلية الشابة ماريا خوسيه فيرَّادا، التي حصدَت أرفع الجوائز الأدبية في بلدها عن «الضوء آخر المساء»، مثل: جائزة نُقَّاد الفن، جائزة وزارة الثقافة لأفضل رواية، وجائزة بلدية سانتياغو للآداب.

المترجم

ماريا خوسيه فيرَّادا

الضوء آخر المساء

9 789921 808940

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com